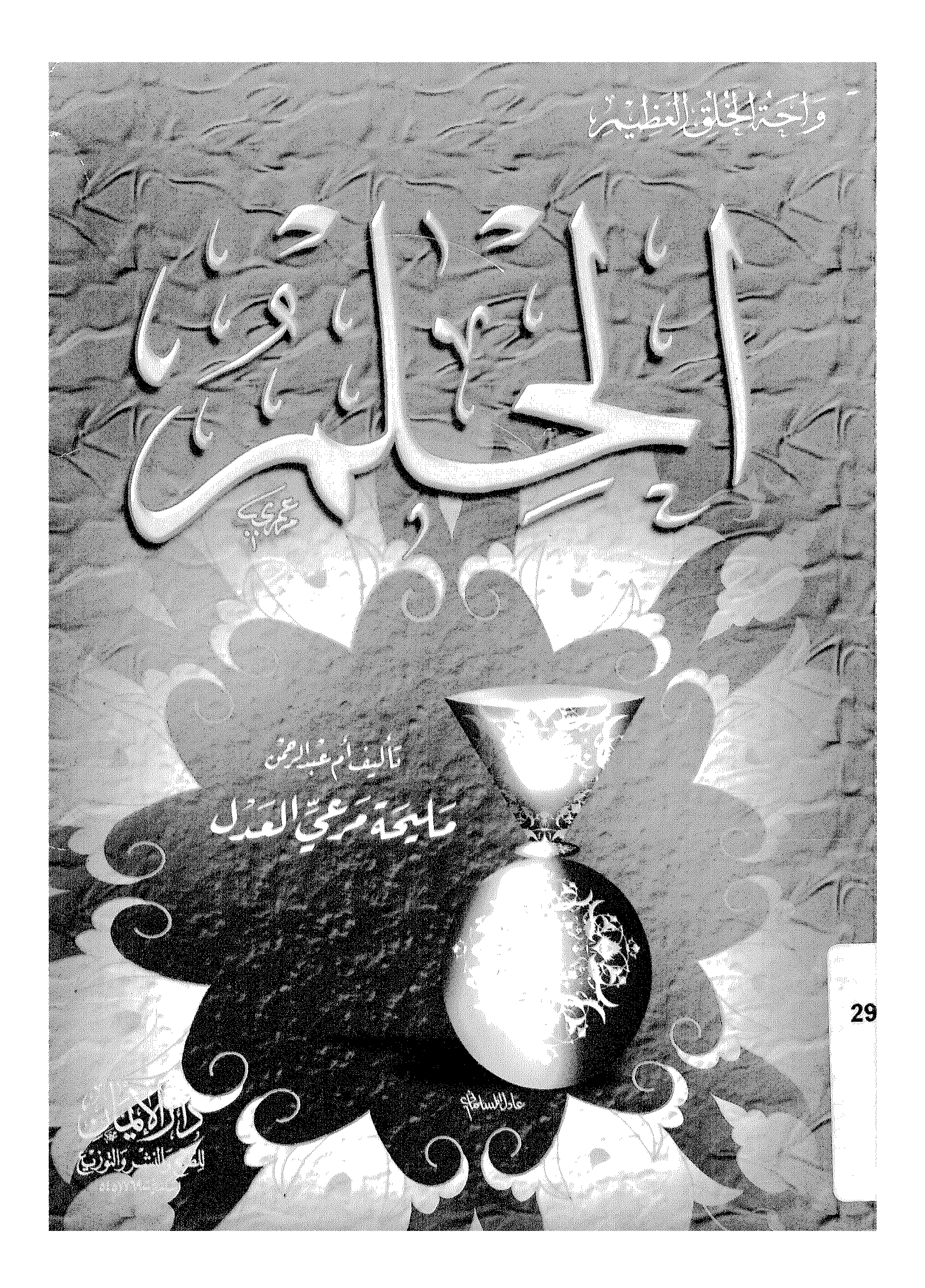
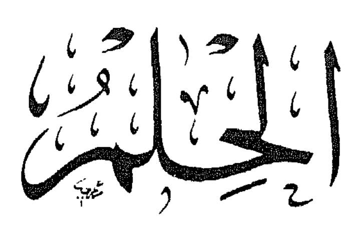

واحة الخلق العظيم
الحلم
تأليف أم عبد الرحمن
مليحة مرعي العدل
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
29




الحلم

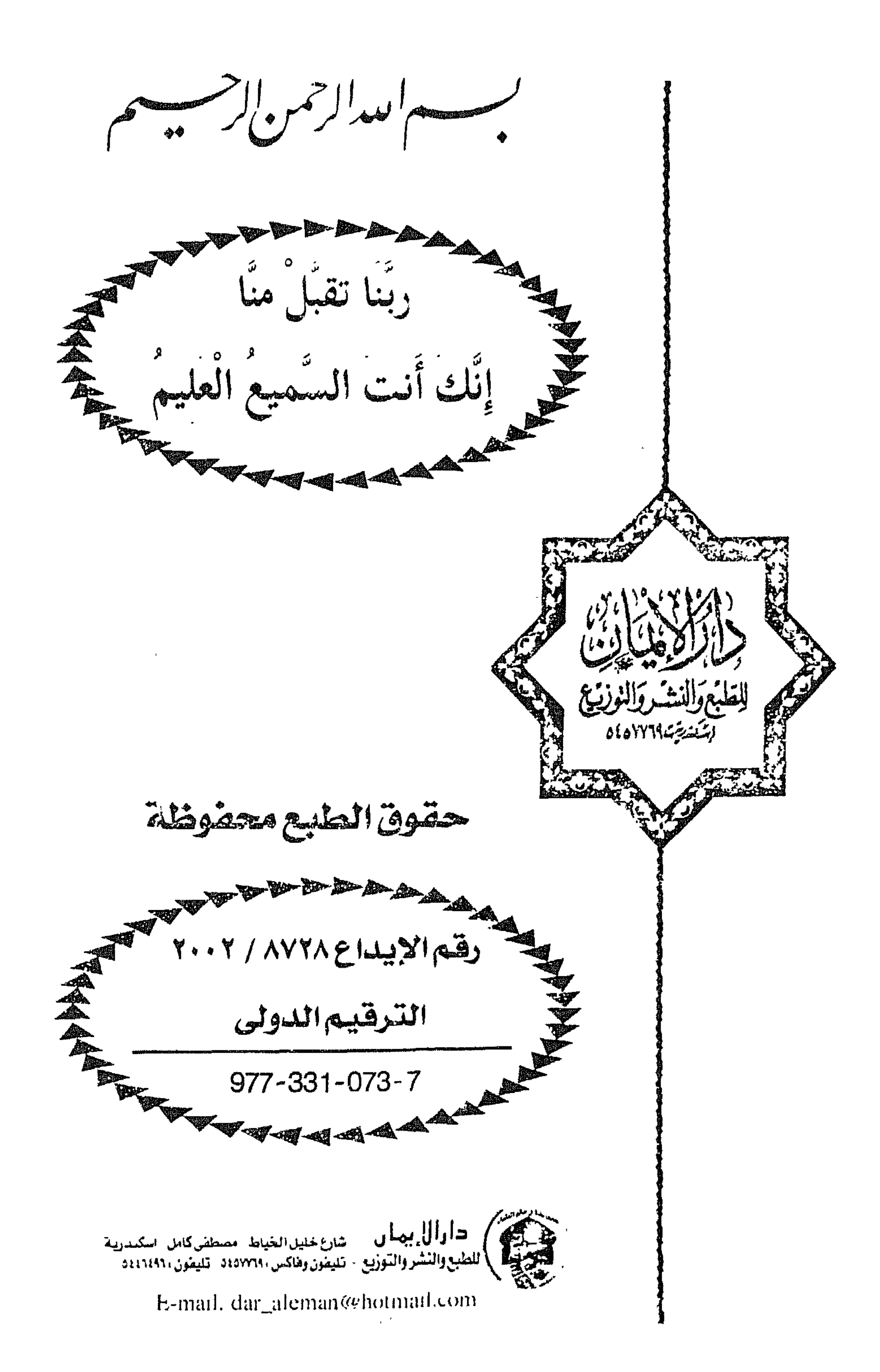
واحة الخلق العظيم



تأليف أم عبد الرحمن

ماجدة مرعي العدل





بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ٨٧٢٨ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي
977-331-073-7

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع - شارع خليل الخياط مصطفى كامل اسكندرية
تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail. dar_aleman@hotmail.com

المقدمة :

الحمد لله الذى خلق كل شىء بقدر ، وخلق المخلوقات وكرّم منهم البشر ، إذ اصطفاهم لعمارة أرضه ، وشرفهم بالعبودية له ، فقال سبحانه : ﴿ وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبُدُون (٥٦) ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى الناس كافة ليهديهم سبيل الرشاد ، فمن استمسك بغرْزِه واقتفى أثره فقد فاز ، ومن تولى وكفر فقد خسر خسراناً مبيناً .

وبعد :

فإذا كان رسول الله ﷺ قد جاء بالدين الحنيف لهداية البشر ، فإنه ﷺ هو روح الدين الحقيقية ، والترجمة الفعلية لمعانى هذا الدين العظيم ، كيف لا ؟ وديننا ليس نصوصاً تَغُطّ بين دفّتى كتاب فى سُبات عميق .

إنما هو عمل دؤوب ، وفكر مُتّقد ، وخُلق رفيع ، وسلوك قويم ، ورسول الله ﷺ كان هو دآبة هذا العمل ، واتّقاد هذا الفكر ، ورفعة هذا الخلق ، واستقامة هذا السلوك .

فمن أراد الوصول إلى حقيقة هذا الدين العظيم ، فعليه باتباع خُطى رسول الله ﷺ ، لا يحيد عنها ولا يزيغ ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، فلا يفلح السعى إلا على درب رسول الله ﷺ ، ومن طمح إلى بيت فى أعلى الجنة فمعراجه إليه هو خلق رسول الله ﷺ الذى زكاه رب العزة سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وإنّك لعلىٰ خُلُقٍ عظيمٍ (٤) ﴾ [القلم : ٤] .

ومن عظمة أخلاقه ﷺ أن فيها صلاح البشرية أينما حلّت ووقتما وُجدت، والتخلى عنها إنما هو هدم لأسمى معانى الدين ، وتفويض لكل مقومات الحياة والعادات بدونها إنما هى طقوس لا تُسمن فى الدين ولا تغنى من جوع .

أما الأخلاق في غير باب الدين فإنما هي نظريات - في كثير من مراحلها - غير قابلة للتطبيق الواقعي ، وإن طُبّق شيء منها فإنما لفترة خاطفة لا تتعدّى لمعان الفكرة التي قامت عليها ، ثم لا تلبث أن تخبو ، وها هي مدينة أفلاطون الخاوية على عروشها خير مؤيد لما نقول .

يقول الأستاذ / وحيد الدين خان في كتابه الرائع « الإسلام يتحدى » : «إن الإيمان بالله يعطي الإنسان محركاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التي عبّر عنها السِّير وليام أوسلر بقوله : إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل » .

وربما يطيب لنا هنا نقل آراء بعض علماء التربية والاجتماع في الغرب ، لا لشيء إلا لكونهم عاصروا المدينة اللا أخلاقية ، ورصدوا ما آل إليه المجتمع من انحلال وانهيار في ظل التخلّي عن العقيدة والإنسلاخ من الدين .

[الفيلسوف الألماني « فيخته » : الأخلاق من غير دين عبث .

الزعيم الهندي المعروف « غاندي » إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الإنفصال ، ولا يفترق بعضهما عن بعض ، فهما وحدة لا تتجزأ ، إن الدين كالروح للأخلاق ، والأخلاق كالجو للروح ، وبعبارة أخرى : الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها ، كما أن الماء يغذي الزرع وينميه .

يقول القاضي البريطاني « دينبج » : بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون ، الدين هو المصدر الفذ المعصوم ، الذي يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها ، والدين هو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه ويعمل له ، والدين هو الذي يحدّ من أنانية الفرد ، ويكفكف من طغيان غرائزه ، وسيطرة عاداته ، ويخضعها لأهدافه ومثله . ويربي فيه الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق .

الفيلسوف « كانت » : لا وجود للأخلاق دون اعتقادات ثلاثة : وجود الإله ، وخلود الروح ، والحساب بعد الموت] [1] .

وهكذا فإن الدين بلا أخلاق طقوس جوفاء لا طائل تحتها ، كما أن الأخلاق بلا دين صرح قد انهار قبل أن يقوم من مقامه .

والأخلاق الحقة إنما تؤخذ من باب الدين الحق ، والدين الحق إنما هو رسول الله ﷺ الذى كان قرآناً يمشى على الأرض ، ولهذا فمن أراد العبادات فعليه برسول الله ﷺ ، ومن أراد الأخلاق فعليه برسول الله ﷺ ، ومن أرادهما معاً فعليه برسول الله ﷺ .

وها نحن قد حوّمنا حول [**واحة الخُلق العظيم**] ، على صاحبها أفضل صلاة وأزكى سلام ، علّنا نحظى منها بنصيب ، وارتشفنا من فيض رحمته وتواضعه ووفائه وكرمه ، وصدقه وأمانته ، وحيائه وزهده وشجاعته .

وموعدنا إن شاء الله تبارك وتعالى فى هذا الكتاب مع [حلمه ﷺ] ، ذلك الخُلق الرائع الذى يطفئ الأحقاد ، ويسل سخائم الصدور ويحيل العدو إلى ولىّ حميم .

ولإن كانت الجزيرة العربية – بما كان فيها من حميّة ورعونة ، وقيظ فى مناخها يقابله إتقاد وفوران فى انفعالات أصحابها ومشاعرهم – قد كانت فى أمسّ الحاجة إلى خُلق الحلم ، لضبط الإنفعالات وتحكيم العقل عند احتدام المواقف ، وكبح جماح الغضب وإطفاء ثورته ، فإننا اليوم – مع سرعة إيقاع الحياة ، وغلبة الماديات ، وسيطرة الطابع الثورى المتوثب على المواقف والأحداث – لنحن أشد حاجة إلى ذلك الخلق الكريم [**خُلق الحلم**] لننجو

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام الأستاذ / عبد الله ناصح علوان .

بأنفسنا من هـذا الهوس الإنفعالى ، ونستروح بـه من عناء الحياة وقسـوة ضغوطها .

ولكى نتعرف على الحلم فى أروع صورة ، والتى هى نقطة محمودة بين مذموميين - بين الإنفعال الأحمق والتبلد الآخرق - هيا بنا نستأذن فى أدب يليق برسول الله ﷺ ، لنحيى معه وقتاً مباركاً ، نعايش فيه حلمه الرائع ، محاولين فى صدق نيّته ومضاء عزم التخلق به .

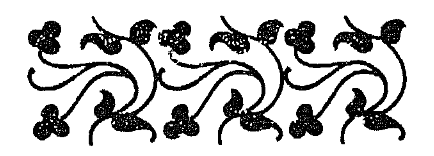
فهل تأذن لنا سيدى يا رسول الله ...

كتبه

أم عبد الرحمن

مليحه مرعي العدل

غفر الله لها ولوالديها وللمسلمين



واحة الخلق العظيم
[الحلم]

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

بين يدى الكتاب :

ما أروع التجوال فى روضة أخلاق الرسول الكريم ﷺ ، ما أجمل استنشاق عبقها الذكى الطاهر ، والاستمتاع بذلك الفيض الرائع ، الذى تغتسل فيه النفس المثقلة بأدران الإثم وذل المعصية وهمّ التقصير ، فإذا بها خفاقة فى سماء الجد ، شفيفة بنور الإيمان .

ما أطيب أن يلقى العقل المشوش المجهد ، الباحث عن الحقيقة بنفسه بين جناتها ، متأملاً باحثاً ، فإذ به مستنير الفكر ، مهتد الخطى موصولاً بالله تبارك وتعالى ، والدوحة الرائعة التى نتأملها تلك المرة ونستضىء بفيض سناها ، دوحة نضرة متألقة ، وارفة الظلال ، دافئة المشاعر ، ينتعش المستظل بها أيما انتعاش ، ويسمو أيما سمو ، حتى يفيض على من حوله رقة وسماحة وعفوا وجمال روح - إنها دوحة الحلم - ، والحلم صفة جليلة من صفات الله عز وجل خلّق بها رسول الكريم ﷺ ورباه عليها ، فكان هو الكثير الحلم ، الواسع العفو ، المحسن دائماً لكل من أساء . والحلم هو « كف النفس عن الثأر أو مقابلة الأذى بمثله ، والحلم منوط بالقدرة على العقوبة أو الانتقام » [(١)] .

غير أن الحليم كريم مفضال يتغاضى عن الأذى ويترفع على الغيظ ، بل ويتجمل بالإحسان إلى المسىء ، وهل تكون ذروة تلك المكارم إلا لرسول الله لهذا « كان عليه الصلاة والسلام القدوة فى سعة الصدر ، وسماحة النفس التى تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها ، أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء وفيهم الذين يسألون ويجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدال إلا اللحاج والعناد ، والحلم فى

---

(١) من أخلاق النبى ﷺ

كل حالة من هذه الحالات هو القوة النفسية التى لا تغنى قوة غناءها .

وهو عليه الصلاة والسلام المعلم الأول ، مبلغاً عن ربه ، ومفصلاً وموضحاً ومطبقاً لما أوحى إليه ، فيذهب إليه هذا فيسأله ، ويلقاه ذلك فيستزيده ، ويجلس إليه آخر فيستفتيه ، ويُحارُ أناس فى حكم فيستوضحوه ، ويحزب الأمر آخرين فيسرعون إليه يلتمسون عنده الرأى الذى يجهلونه ، ومن بين هؤلاء كبار وشباب ، ورجال ونساء ، وذووا كياسة ولباقة وأصحاب غلظه وجفاء ، ومسلمون أشربت قلوبهم الإيمان ، ومسلمون حديثوا عهد بالإسلام ، وأذكياء تكفيهم الوجازه ، وآخرون يعوزهم الذكاء ولا يغنيهم إلا التفصيل ، فلابد من صدر رحيب يتسع لهؤلاء ، ولابد من حلم يسع ما قد يبدر مقصوداً أو غير مقصود ، ولابد من ضبط النفس عند الضيق والغضب وما ينجم عنها من آثار » (١) .

وما أعظم حلم رسول الله ﷺ ، وما أوسع عفوه ، وما أغض طرفه عن حظ نفسه فى الانتقام إلا أن يكون لله ، وهاهى عائشة رضى الله عنها تنبيك عن رسول الله ﷺ قائلة : « **ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها** » (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : « **إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة** » (٣) .

فالحلم والأناة من أدوات النجاح والفلاح فى حياة الإنسان عامة والدعاة إلى الله خاصة ، ذلك أنهم مرشدوا البشرية إلى طريق الفلاح وقائدوا الناس إلى

---

(١) من أخلاق النبى ﷺ

(٢) صحيح البخارى ، باب صفة النبى ﷺ ، كتاب بدء الخلق

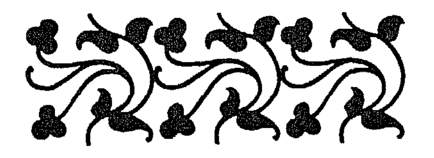
(٣) رواه مسلم

طريق الله المستقيم ، ولا يصلح لتلك المنزلة من بأخلاقهم وعورة ، أو بقلوبهم قسوة ، أو مَنْ تسيطر على انفعالاتهم غضبة حمقاء .

لهذا فقد نصح رسول الله ﷺ لكل داعٍ إلى الله ، وكل مسترعٍ فى خلق الله ، حيث قال ﷺ : « **إن شر الرِّعَاء الحُطَمة ، فإياك أن تكون منهم** » [1] ، والحطمة : أى القاسى العنيف .

فالحلم تاج الخلقُ ، ووقار العقلاء ، وغيظ الشيطان يقطع عليه سبيل التحريش بالمؤمنين بعضهم بعضاً ، وما أبصر الشاعر بتلك الحقيقة إذ يقول :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة	فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه	كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى	ولا مانع خيراً ولا قائل هجرا



---

(١) متفق عليه

الفصل الأول

[حلمه ﷺ على الرجال]

المبحث الأول : فإنما بعثتم ميسرين .

المبحث الثانى : فضحك ثم أمر له بعطاء .

المبحث الثالث : خيركم أحسنكم قضاءً .

المبحث الرابع : إكلأ لنا الليل .

المبحث الخامس : أن تأمرنى بحسن الأداء .

المبحث الأول
[فإنما بعثتم ميسرين]

من لـى بإنســان إذا أغضبتـه وجهلت كان الحلم ردّ جوابه [١]

إنه رسول الله ﷺ ، أوسع الناس صدراً ، وأبعدهم غضباً ، إذ أنه يربى أناساً كانوا يغطون إلى أمس قريب فى جاهلية مزرية بما فيها من حماقة منطق ، وسفاهة عقل ، وسوء خلق .

يربى محسنهم ومسيئهم ، وعاقلهم وسفيههم ، وحكيمهم وطائشهم ، ولذا كان الحلم بما ينطوى عليه من حُسن الخلق ، وحكمة المنطق ، وصدق الإخلاص فى النجاة بهم قد أخذ عليهم مجامع قلوبهم ، ورد شاردهم إلى الحق كما تعود الشاة الضالة إلى مرتعها الخصيب حين يجهد الراعى نفسه فى البحث عنها حتى يستنقذها من تربص الذئاب بها .

فها نحن فى مسجد رسول الله ﷺ فى أطهر بقاع الأرض ، حيث الصلاة والذكر والتسبيح ، حيث القلوب ترفرف بجناحى الإيمان والتقوى لترتع فى ربوع الجنة ، والأنفس ترتقى بجناحى الطهر والشفافية لتصل أسباب السماء ، والأجساد تصطف اصطفاف الملائكة فيباهى الله تبارك وتعالى بهم ملائكة السماء .

فى هذا الجو السماوى الرائع ، فى ذلك المكان القدسى الطاهر يحدث مالا تستسيغه عين ، ولا يستوعبه عقل ، ولا يصدقه قلب ، ماذا يحدث ؟! .

يقوم أعرابى ، ليصلى ؟، ليتحلق فى حلقة علم ؟، ليستفتى رسول الله ﷺ

---

(١) أبو تمام .

في أمر حزبه ؟ ليقم المسجد وينظفه ؟ بالطبع لا ، ليس لسبب من تلك الأسباب قام ، لماذا قام الأعرابي إذاً ؟ .

فلنصغ لأبي هريرة رضي الله عنه إذ يخبرنا ذلك الخبر العجيب فيقول : « قام **أعرابي فبال في المسجد ، فتناوله الناس ، فقال لهم النبي ﷺ : دعوه ، وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين** » [(١)] .

قام الرجل ليبول في المسجد ويا بئس ما قام له ، إذ انتهك حرمة المسجد ولم يرع حق الله فيه ، فتناوله الناس ، وحق لهم أن يتناولوه ، إذ أثار حفائظهم ، وأشعل نار الغيرة في قلوبهم على حرمة مسجدهم ، لهذا قام المربي الكريم ﷺ ليهدئ من ثورة الثائرين ، ويضمد جرح المشاعر النازف ، ويعلم الجاهل ويهدئ من روع المروع ، فقال لصحابته الكرام – رضي الله عنهم – : دعوه ، لا تفزّعوا الرجل .

دعوه واعذروه بجهله ، وارحموا حداثة إسلامه ، إنه أعرابي لا فضل لبقعة من الأرض على أخرى عنده إلا أن تكون أكثراً كلأً وأروى مورداً .

أعرابي لم يتأدب بعد بآداب الإسلام ، ولم يرتو من نبعه الصافي ، وهاهي قد حانت الفرصة ليتعلم ويتهذب فلا تنفروه ، دعوه لا تروّعوه ، وأصلحوا بعلمكم أنتم ما أفسد هو بجهله ، ليعلم أنه أخطأ ويتعلم كيف يعالج الخطأ ، أهريقوا على بوله سجلا أو ذنوباً من ماء .

بتلك البساطة الودودة ، وبذلك الحلم الرائع ، وبهذا الذكاء الفذ لم يتعلم الرجل وحده ، وإنما تعلم معه الصحابة الكرام ، وتعلمت الأمة من بعدهم تعلم

---

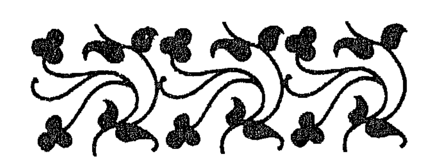
(١) صحيح البخاري : باب صب الماء على البول في المسجد ، كتاب الوضوء .

هو كيف لا يسيء إلى المسجد مرة أخرى ، وتعلموا هم كيف يتجاوزوا عن المسيء ، وكيف يُصلحوا ما أفسد ، وتعلمت الأمة فقه الطهارة وتعلم الدعاة كيف يكون الحلم فى الدعوة .

ثم أطلقها رسول الله ﷺ منهجاً للدعوة وخُلُقًا للدعاة « **إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين** »

أنتم أيها المسلمون إذاً أصحاب رسالة ، وصاحب الرسالة أبداً لا يكون سريع الغضب ، ولا فظاً عليظاً ، إنما ميسر إذا كان التيسير فى نطاق المباح الشرعى ، ولذا يجب أن يتحلى الداعية بالحلم الواعى ، والصبر الجميل تأسياً بقائده الأعظم وقدوته الحليم ﷺ .

وكـــذاك حض على اتبـــاع اللين   والحـسنى وجـذب الناس بالرقـ ت
لا بالفـظاظة واحـــتـــقـــار الرأى أو   إمـــــلاء هذا الدين بالشـــــدات
ونهى عن العنف المسيء وفحش قو   ل قـــد يثـــيـــر النفس والعـــزات
وسـيـاسـة الإقناع أوحـسن التـفـا   هـم عنده فى أول الدرجــــات [١]



(١) الموسوعه الذهبيه (٣٣/٢)

المبحث الثانى
[ثم أمر له بعطاء]

مرة أخرى مع الأعراب ، والحديث عن الأعراب حديث ذو شجون ، إذ الأعرابى بقسوة عيشه وكثرة ترحاله ، قد اكتسب لساناً فصيحاً لكنه خشناً لم يدرج على الرقة ، ولم يعرف اللين يوماً ما ، ولم يكن له مع كثرة الحل والترحال فرصة لتدارس الآداب والأخذ منها فى مختلف مناحى الحياة بنصيب ، ولهذا فقد انطبعت غلظة معيشته على شخصيته ، فأصبح غليظ الطبع حاد الإنفعال فيه قسوة ورعونه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعالج غلظتهم بالحلم وأذاهم بالصبر ، وجفوتهم بالبشاشة واللين .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « **كنت أمشى مع النبى ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ قد أثرت فى حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال : مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء** » [(١)] .

صلوات الله وتسليماته على معلم البشرية الخير إلى يوم الدين .

رجل معوز ، ألجأته الحاجة إلى السؤال ، والحاجة تذل صاحبها وتقعده كسير النفس ، خفيض الصوت ، حيىّ الطرف ، يتودد الناس إستدراراً لعطفهم واستجلاباً لخيرهم ، غير أن هذا السائل كان على العكس من هذا فلم يحسن السؤال ، ولم يجمل فى الطلب ، ولم يحفظ للمسؤل ﷺ قدره ، ولم يرع

---

(١) صحيح البخارى : باب ما كان النبى ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم ، كتاب الجهاد والسير .

حقه ، رغم أنه هو السائل المحتاج المعوز ، ورسول الله ﷺ هو المسئول المرجو عطاءه ، المؤمل خيره .

ولم يسيء الرجل في الطلب وحسب ، ولم يجفو في السؤال وفقط إنما تطاول على الذات النبوية الشريفة وبغى وطغى وجذبه جذبة شديدة أثرت في عاتقه الشريف بأبي هو وأمي ونفسي التي بين جنبي ، أي عاتق ذلك الذي تأثر وتألم ؟ ، إنه لأعظم رجل ولدته أنثى إلى يوم الدين كان من الممكن أن يقول رسول الله ﷺ « يا صحابة رسول الله » فتجيبه آلاف القلوب « لبيك لبيك » ، وتجيبه آلاف السواعد بآلاف السيوف فيبتدروا المسيء جزاءً وفاقاً لما ألحق من أذى بالرسول العظيم ﷺ ، وحُقّ للرسول ﷺ أن يقول وحق لصحابته الكرام أن يفعلوا .

تُرى ، ما الدافع وراء تلك القسوة الغاشمة ؟ .

أَيظُلْم أوقعه رسول الله ﷺ على الرجل ؟ .

حاشاه أن يقر الظلم من غيره ، فضلاً عن أن يظلم هو ؟ .

أَلحَق ضاع له عند رسول الله ﷺ .

أَ لاستئثار رسول الله ﷺ بطيب العيش ورغده دون الآخرين ؟

كلا وحاشا . ماهي طلبة الرجل إذاً ؟ .

مر لي من مال الله الذي عندك !! يال الدهشة ، يسيء إليه وهو يطلب إحسانه ! يجهل عليه وهو يرجو خيره ! ، إنه العجب والدهشة ، غير أن قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ربما يهد أمن دهشتنا بعض الشيء ، إذ يقول : من أوكد أسباب الحلم ، الرحمة للجهال ، وذلك من خير يوافق رقة [1] ، ومـا

---

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي – رحمه الله – .

تلك الحكمة وذلك الحلم في عليّ رضي الله عنه إلا بعضاً من حكمة رسول الله ﷺ وحلمه ، فمن يحلم إن لم يحلم هو ؟ ، ومن يصبر إن لم يصبر ؟ ، ﷺ ، إن الرجل لم يتلق آداب المعاملات ولم يتعلم حسن الطلب ولا احترام المنعم ، ولا اكتسب حلاوة اللسان ولا طلاوة الكلام ، ولم يتدرب على النفاق والمداهنة ، ولم يعرف أساليب اللصوصية وطرق الوصولية .

إنما هو بدوى بغلظة البادية ، قاس بقسوة طلب الرزق فيها ، بيئته إذاً قد انطبعت فيه بلا وعى منه ولا اختيار ، لم يقصد الرجل أبداً النيل من رسول الله ﷺ إنما كما يضرب بإصرار الأرض طولاً وعرضاً طلباً لمائها ومرعاها ، يجذب الرسول الكريم ﷺ جذباً شديداً طلباً لخيره وعطائه ، التفت إليه رسول الله ﷺ الغواص في أغوار النفوس ، بتواضع جم ، وحب بالغ ، ورقة فياضة ، و ... وضحك ، ضحك ؟ ما أعظم الحلم وما أوسع الرحمة والرأفة .

لم يعذره فقط ، لم يتغاضى عن الإساءة فقط ، لم يسامحه فقط ، بل ضحك ، وهش وبش له ، وقابل إساءته بالإحسان ، وقسوته بالرحمة واللين ، وقبح الطلب بجميل العطاء ، محققاً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٣٤) ﴾ [آل عمران : ١٣٤] « ألا ما أكمل هذه الإنسانية التى تثبت أن قوة الخلق هى درجة أرفع من الخلق نفسه ، فهذا فن الصبر لا الصبر فقط ، وفن الحلم لا الحلم وحده » [(١)] .

(١) وحى القلم (جـ ٢) .

المبحث الثالث
[خيركم أحسنكم قضاءً]

﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم : ٤] .

وهل فوق شهادة الله عز وجل شهادة ؟ .

هذا هو رسول الله ﷺ ، وتلك شهادة الله تبارك وتعالى له ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .

أية أخلاق تلك التي يشهد لها الله تبارك وتعالى بالعظمة ، وأى تعظيم يكون ؟ ، لا شك أنها فوق احتواء العقول ، وأبعد من أن يحتويها خيال ، لكن معنا الآن قطرة ندية من تلك الأخلاق الرائعة يهدينا إياها أبو هريرة رضي الله عنه فيقول:

« إن رجل أتى النبى ﷺ يتقاضاه فأغلظ ، فهمّ به الصحابة ، فقال رسول الله ﷺ : **دعوه ، فإن لصاحب الحق مقال ، ثم قال : أعطوه سناً مثل سنه ،** قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، **فقال : أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاءً** » (١) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما أحلمك ، وما أكرمك ، وما أنبلك ، ومأأعظم ترفعك عن حظ نفسك ، وأنت رسول الله ! وأنت إن أردت لعشت كأنعم ما يكون ملوك الأرض ، لكنك قد زهدت فى الدنيا ، ورغبت عنها إيثاراً لما عند الله عز وجل ، فكانت حياتك كفافاً ، بل هى ما دون الكفاف .

عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إنْ كنا لننظر إلى الهلال

---

(١) البخارى ، باب لصاحب الحق مقال ، كتاب فى الاستقراض وقضاء الديون .

ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت : ما كان يعيشكم ؟ **قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه** قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا » [(١)] ، وفى رواية أبياتهم فيسقيناه .

شهران متتابعان لا يوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار، ولا يطهى فيها طعام ، وهو أكرم خلق الله على الله ، وله وحده خمس الغنائم ، وما أعظمها وأوفرها ، لكنه ﷺ كان ينفق كل هذا فى سبيل الله ، فلا يبقى لنفسه إلا أقل القليل ، بل وربما اضطر ﷺ إلى الاستدانة ، لأجل مالا حياة للإنسان إلا به من طعام ، وربما ليعطى فقيراً آتاه ، وليس فى يديه ما يعطيه ، ويستحى أن يرده صفر اليدين .

إن الشرف كل الشرف أن يطلب العظيم مطلباً ممن هو دونه ، ففى تلبية طلبه غبطة ، أى غبطة ؟ وفخار أى فخار ، بل واكتساب مكانة وكرامة وفضلاً ، فما بال ذاك الرجل ، يرتكب فى حق رسول الله ﷺ هذا الفعل المشين ؟ ولم تلك الغلظة ؟ وهو الذى إزداد شرفاً وعلت مكانته حين طلب إليه رسول الله ﷺ حاجته .

ما تلك الجرأة الشنيعة ، التى استثارت غضبة الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، فهموا به لولا نهاهم عنه رسول الله ﷺ ، إنه رسول الله ﷺ الذى شرّع الله سبحانه وتعالى للأمة آداب الحديث معه ﷺ فقال عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ**

---

(١) البخارى ، باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ، كتاب الرقاق .

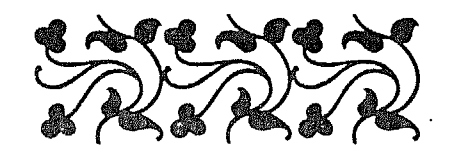
كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) ﴾ [الحجرات : ٢] .

ومع ذلك فقد قال للصحابه الكرام « دعوه » لشأنه والتمسوا له العذر ، فإنه صاحب حق ، ولصاحب الحق مقال ، أعطوه سنا مثل سنه ، فإن لم تجدوا المثل فأعطوه الأمثل ، مكافأة له على جميل صنيعه ، إذا أعطى وقت الحاجة .

وخذوا أيها الأصحاب الكرام ، وأنت أيها الرجل المطالب بحقه فى غلظه لا تنبغى لمسلم – فضلاً عن رسول الله ﷺ – وخذى أيتها الأمة المحمدية هذا الأدب الرفيع فى المعاملات « إن خيركم أحسنكم قضاءً » .

عجباً لك أيها الرجل !

إن كان رسول الله ﷺ مدين لك بعرض من الدنيا قليل ، فإنك مدين له بدين مهما طال عمرك وحسن عملك لن تستطيع له قضاء ، مدين له بانتشالك من مستنقع الجاهلية وحياة السائمة إلى رفعة الإسلام وكرامة المسلم ، وصلى الله وسلم وبارك على من دان له الخلق ، إذ كان به صلاح الدنيا والآخرة .



المبحث الرابع
[اكلأ لنا الليل]

يارب صلِ وسلم مـــا أردت على نزيل عـرشك خـيـر الرسل كلهم

مـحى الليـالى صـلاة لا يقطعـهـا إلا بدمع من الإشـفـاق منسـجم

مـسبحاً لك جنح الليل محتـمـلاً ضُـرًا من السـهـد أو ضُـرّاً من الورم

رضـيـة نفـسـه ، لا تشـتكى سأماً وما مع الحب إن أخلصت من سأم [١]

هذا حال رسول الله ﷺ مع قيام الليل ، يقومه حتى تتورم قدماه وليظل بها موصولاً بمولاه ، وهل للمحب أن ينام عن الحب أو يسأم لقياه فما الظن إن كان المحب رسول الله ﷺ وحبيبه هو الله تبارك وتعالى ، إنه الخضوع والخشوع ، التزلف والمناجاه ، إنها روعة القرب من الله تقدست أسماؤه فى صلاة تطوعت بها نفسه ، واستضاءت بها روحه فاصطفت لها قدماه وطارت بها روحه ، فكيف بصلاة فرضها الله تبارك وتعالى عليه ؟ .

إن رسول الله ﷺ وهو حريص كل الحرص على أداء حق العباد لهو على أداء حق الله تبارك وتعالى أشد حرصاً وأدنى تقصير فى أدائه يكون أشد إيلاماً له وكيف لا وهو حق الله تبارك وتعالى ؟ ، لهذا فما نام رسول الله ﷺ عن حق من حقوق الله تبارك وتعالى فى سفر أو حضر ولا عذر نفسه بشغل أو تعب .

إذا وصل به الجهد أقصى مدى ، وخاف أن تغلبه حاجة الجسم الملحة إلى النوم وكّل به من يوقظه حتى لا يسترسل فى نومه فتضيع أو تتأخر الصلاة .

---

(١) ديوان شوقى .

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال : أكلأ لنا الليل ، فصلى بلال ما قدر له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجهة الفجر فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً ففزع رسول الله ﷺ فقال : أي بلال ، فقال بلال : أخذ بنفسي الذى أخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله بنفسك ، قال : اقتادوا فاقتادوا رواحلهم شيئاً ثم توضأ رسول الله ﷺ ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح فلما قضى الصلاة قال : « **من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى ، قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾** [طه : ١٤] »[1] .

اكلأ لنا الليل يا بلال ، ارعه كما ترعى غنمك ولا تغفل عنه فيتفلت منك ، كن أشد حرصاً على اليقظة من الراعي الأمين على غنمه .

إنها الصلاة يا بلال ، الصلاة راحتي ، قرة عيني وجنتي في الأرض ، إنها حق الله « وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، إنها الصلاة التي ينتظرها رسول الله ﷺ بكل الشوق ليلقى بنفسه بين رياضها حيث يغتسل من هموم الدنيا وعنائها ، ولطالما اشتاقها فنادى « أرحنا بها يا بلال » .

الصلاة التي وقتها الله سبحانه وتعالى لحكمة لا يدرك منتهاها ، **﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾** [النساء : ١٠٣] ، الصلاة التي ظل رسول الله ﷺ يوصي بها حتى آخر لحظات عمره المبارك

---

(١) صحيح مسلم برقم (٦٨٠) .

« **الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم** »[1] .

الصلاة معراج الأرض إلى السماء ، مناجاة العبد لمولاه بلا واسطة ولا ترجمان ، الصلاة فرقان ما بين الكفر والإيمان « **العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة** »[2] ، لهذا ولمعان كثيرة عظيمة فى نفس رسول الله ﷺ . كان ﷺ أشد ما يكون حريصاً عليها ، إذاً احفظ علينا صلاتنا يا بلال .

إن كتائب الإيمان فى حاجة إلى الراحة بعد مشقة السفر وعناء الجهاد لإعلاء كلمة الله عز وجل فى الأرض ، وهاهى عائدة ترفرف بأجنحة النصر فى سماء المجد قد طهرت المدينة المنور من شر أحفاد القردة والخنازير ، وقد آن للكتائب المؤمنة أن تستريح بعد أن أسهرت عيونها وقلوبها وعقولها لله تبارك وتعالى .

وها هو النوم يتسلل مشتاقاً إلى العيون المؤمنة المناضلة فيطبق الأجفان رويداً رويداً على فرحتها الغامرة ، ويأخذ القوم فى ثبات عميق ، ولكى لا تُفَوِّت عليهم لذة النوم بعد السهر والجهد لذة الوقوف بين يدى الله سبحانه وتعالى أقام رسول الله ﷺ بلالاً حارساً يرعى الليل حتى إذا ما تناثرت بشائر الصبح البكر على ذيل الليل المنصرم ، أيقظ هو القوم ليودعوا ليلتهم بالذكر والتسبيح والتهليل ، ويرحبوا بالصبح القادم أكرم ترحيب، بروعة الأذان ، وجلال الصلاة.

وقبل بلال التكليف بفرحة حب ورضا نفس ، وقام يصلى ليطرد عنه غلبة النوم ويتقوى بالمناجاة على مشقة السهر بعد جهد وعناء ، غير أن للبشر طاقة محدودة وصبر لابد وإن طال نافذ ، لهذا فقد نام الرجل ، قهر النوم آخر

---

(١) صحيح جاء عن أنس وأم سلمه وغيرها

(٢) مسلم

محاولاته للمقاومة فنام .

أخذ بنفسه الذى أخذ بنفس الجيش كله ، وراح فى ثبات عميق حتى استيقظ رسول الله ﷺ على وهج الشمس الملهب فى جو الصحراء الملتهب ، أى بلال ! إنه الفزع الحقيقى أن تضيع الصلاة ! وممن ؟ من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الأطهار .

أى بلال ، ألم أأتمنك على الصلاة ؟ .

وماذا يفعل من بذل طاقته وجهده وكان التكليف فوق الجهد والطاقة ؟ ، أخذ بنفسى الذى أخذ بأبى أنت وأمى يارسول الله بنفسك ، لم أفرط ولم أستهن بأوامر القيادة العليا ، الأمر فوق حرصى وفوق احتمالى يارسول الله ، إنها إرادة الله ، ولأن الأمر كله بيد الله ، ولأنها مشيئة الله تبارك وتعالى رغم حرص بلال وإصراره فقد رضى رسول الله ﷺ بقضاء الله ، فلم يعنف الجندى الذى غلبه النوم ، فغزا موْقعهُ الشيطان ، فضرب على الآذان حتى طلوع الشمس ، إذا ارحلوا قليلاً عن هذا المكان ، ثم نصلى ما فات ، ولن ترُعْ يا بلال ، إنه العفو والمعذرة ، ومعهما رخصة رائعة وعطاء وفير ، إنه التيسير يرفع عن الأمة الحرج والمعاناة « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه : ١٤] .

والنوم بها أولى ، إذ الأرواح فى قبضة الله تبارك وتعالى إن شاء أرسلها .

ما أحلمك يا حبيبى يارسول الله ، يامن كانت وصيتك النفيسه لصحابتك الكرام ، الحلم والبعد عن الغضب ، فعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً قال للنبى ﷺ : أوصنى قال : لا تغضب ، فردد مراراً ، قال : « **لا تغضب** » [(١)] .

(١) البخارى

ما أسعد جيشاً أنت قائده الأعلى وقيادته الراشده ، ما أغبط جندى أنت مدربه ومعلمه القريب القريب ، الذى لا تحجبه عنك رتبة عسكرية ، ولا مكانة اجتماعية ولا حواجز نفسية ، بل التواضع ديدنه ، والحلم مركبه ، والحنان لجته .

المبحث الخامس
[أن تأمرني بحسن الأداء]

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقضى من إدراكها وطرا
لابد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم المنى إلا لمن صبرا (١)

ومن أصبر على الأذى من رسول الله ﷺ ؟ ، ومن أحلم منه على جهل الجهلاء ؟ ، ومن أكثر احتمالاً منه للضر والإيلام ؟ ، ذلك أنه محمد ﷺ .

« وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبى أبلغ نفوس قومه ، حتى لهو فى طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها ، كأنها الوضع النفسانى الدقيق ، الذى ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء ، وكأن الحقيقة السامية فى هذا النبى تنادى الناس : أن قابلوا على هذا الأصل ، وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية » (٢) .

لهذا فلا ينبغى لنا القول أن رسول الله ﷺ كان حليماً ، إنما الحلم هو الذى استمد من خلق رسول الله ﷺ حقيقته وميزانه ، فإذا أردنا البحث فى حقيقة الحلم ، والوقوف على معالمه الصحيحة ، فلنحيى مواقف رسول الله ﷺ فى هذا الميدان ، ومنها ذلك الموقف الرائع من مواقفه ﷺ وكلها رائعة .

« أخرج الطبرانى عن عبد الله بن سلام بإسناد رجاله ثقات قال :

---

(١) الدين الحلى من كتاب مجموعة من النظم والنثر ، وزارة المعارف العمومية ١٩٣٠
(٢) وحى القلم (جـ٢) مصطفى صادق الرافعى

لما أراد الله هدى زيد بن سعنة ، قال زيد بن سعنة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، قال زيد بن سعنه : فخرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات ومعه عليّ بن أبي طالب ؛ فأتاه رجل على راحلته كالبدوى فقال : يا رسول الله لي نفر من قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث ، فأنا أخشى يارسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ،فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء نغيثهم به فعلت، فنظر إلى رجل بجانبه أراه عليا فقال : يارسول الله ما بقي منه شيء ، قال زيد ابن سعنه : فدنوت إليه فقلت : يا محمد ، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً في حائط بني فلان إلى أجل معلوم كذا أو كذا ؟ قال : لا تسمى حائط بني فلان ، قلت : نعم ، فبايعني ، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطاها الرجل وقال : أعدل عليهم وأغثهم ، قال زيد بن سعنه : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث ، خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ قلت له : يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتم بني عبد المطلب إلا مطلاً ، ولقد كان بمخالطتكم علم ، ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده لولا ما أحاذر قوته (هكذا وردت) لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إليّ في سكون وتؤده فقال : يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا . أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به ياعمر فأعطه حقه

وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته ، قال زيد : فذهب بى عمر فأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعاً من تمر ، فقلت : ما هذه الزيادة ياعمر ؟! قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك وقال أى زيد : وتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا ، قلت : أنا زيد بن سعنه . قال : الحبر ؟ قلت : الحبر قال : فما دعاك إلى أن فعلت برسول الله ما فعلت ؟! وقلت له ما قلت ؟! ، قلت يا عمر ، لم يكن من علامات النبوة شيئاً إلا وقد عرفت فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وقد اختبرتهما ، أشهدك ياعمر أنى قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وأشهدك أن شطر مالى - فإنى أكثرها مالاً - صدقة على أمة محمد ﷺ قال عمر : أو على بعضهم ، فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وآمن به وصدقه وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفى فى غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر ، رحم الله زيداً ورضى عنه » (١) .

هناك من البشر من وقفوا حياتهم للبحث عن الحقائق وصولاً إلى جوهر الأشياء ، وكان زيد بن سعنة رضي الله عنه من هذا الصنف من البشر الحكماء ، الذين لا تخدعهم المظاهر - وإن اطمأنوا لها - إنما ينقبوا فيما وراء الظاهر وصولاً إلى حقيقة الجوهر ، ولهذا فلم نصنفه فى « حلم الرسول ﷺ على غير المسلمين » رغم أنه أثناء تلك الأحداث لم يكن قد أسلم بعد ، ذلك أنه كان فى مهمة البحث عن الحقيقة الكبرى ، التى تتصل مباشرة بمصير البشرية ، ليس الدنيوى وحسب ، إنما فى الآخرة التى هى خير وأبقى ، ألا وهى حقيقة الرسول الخاتم والرسالة المهيمنة ، والباحث عن الحقيقة لابد مدركها مهما

---

(١) الرسول ﷺ ، سعيد حوّى

ارتقى إليها من أهوال .

وزيد بن سعنه رجل عالم حكيم ، يعلم كيف يسبر غور الرجال ، لهذا فقد اختار أن يغضب رسول الله ﷺ غضبة شديدة ، وبغير وجه حق ، علّه يصل إلى حقيقة جرهره ، فالغضب يظهر ما قد يخفى من أخلاق الرجال ، ونجح زيد رضي الله عنه في الوصول إلى مبتغاه ، إنه أمام رجل لم ينل الغضب من نفسه منال ، إنما يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

إنه هو الحقيقة التى كان يبغيها زيد ، إنه رسول الله ﷺ بمثالية أخلاقه التى لا تنبغى إلا لنبى عظيمة نفسه ، كريمة أخلاقه ، يسع جهل الجهلاء ، ويطفئ ثورة الغاضبين ، ويهدأ من اضطراب المضطربين بواسع حلمه ، وجميل صفحه ، بل وصلة من روّع منهم - وإن كانوا هم الباغين - .

فكان حلمه ﷺ قد تمم كل علامات النبوة فيه لدى زيد ، فكان إيمان زيد إيمان يقين بما رأى فيه ﷺ من أخلاق لا تنبغى إلا لإمام الأنبياء برفعة نفسه التى هى « فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة ، وجعلت فى نصاب واحد ، ما بلغت أن يجىء منها مثل نفسه ﷺ ، ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة فى محارتها ، أو تركيب كتركيب الماس فى منجمه ، أو صفة كصفة الذهب فى عرقه وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسط وتضحى» (١) .

(١) وحى القلم (حـ٢) مصطفى صادق الرافعى .

الفصل الثانى
[حلمه ﷺ على العصاة]

المبحث الأول : فقد غفرت لكم .
المبحث الثانى : لا تثريب عليكم اليوم .
المبحث الثالث : اللهم طهر قلبه .

المبحث الأول
فقد غفرت لكم

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى   جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته   بعفوك ربى كان عفوك أعظم[(١)]

وهل لعبد أواب له رب تواب من ذنب ؟ ، وهل لرسول الله ﷺ الذى خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجرات : ٨٥] أن يتعداها ؟ .

كلا وحاشاه ، إنما هو الصفح الجميل ، والعفو الواسع ، والحلم الرائع العظيم الذى وسع جهالة الجاهلين ، وإساءة المذنبين ، لكن بعض الذنب أبشع ، وخرقُه أعظم ، فهل له رتق ؟ ، وهل يسعه حلم ؟ ، إن الإساءة تلك المرة من هذا النوع الأخير ، خيانه مقصودة مدبرة ، ماذا لو أصبح جندى من جنود رسول الله ﷺ الذى رباهم على عينه ، عيناً عليه للعدو الذى يتربص بالإسلام والمسلمين الدوائر ؟ .

ماذا لو أن واحد من الكتيبة المسلمة مطلع على العدة والعتاد والخطط الحربية ، ثم هو المؤتمن على إخوانه ، المأمون جانبه الذى لا يتطرق الشك إليه ، يعرى كتيبته ويكشف خبيئتها للعدو المتربص ؟ .

لنعرض الآن لقصة حاطب بن أبى بلتعة مع الخيانة العظمى كما عرضها لنا عليّ بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى حديث طويل قال فيه :

« بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة

---

(١) الإمام الشافعى

خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه ، من حاطب بن أبى بلتعه إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ، ما هذا ؟ قال يارسول الله لا تعجل عَلَيّ إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بهم أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ لقد صدقكم فقال عمر رضي الله عنه يارسول الله : دعنى أضرب عنق هذا المنافق قال : « **إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » [(١)] .

كاد حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه أن يفسد على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين خطتهم ، ويغتال انتصارهم – لولا أنه محقق بوعد الله لهم – إذ بعث لقريش كتاباً ، يُخبرهم خبر رسول الله ﷺ وخروجه إليهم ، وتفاصيل عن عدد الجيش وعتاده .

خيانة بشعة ، وذنب رهيب ، عقابه الموت مرات ومرات – إن كان للخائن أنفس بعدد أنفس رجال الجيش الذى خانه – لابد وأن يماثل العقاب بشاعة الذنب الذى اقترفه حاطب إذْ خان الله ورسوله والجيش المنبعث لخلاص البشرية من أدرانها وهلكتها ، وعلم رسول الله ﷺ بتلك الكارثة المؤلمة ، ترى من أنبأه الخبر ؟ ، إنه العليم الخبير .

---

(١) البخارى (١١٢/٢) باب الجاسوس والتحسس والتبحث ، كتاب فى الجهاد والسير .

كيف فات حاطب رضي الله عنه أن وحي السماء يأتي قائدة العظيم في ساعة من ليل أو نهار؟ ، كيف فاته أن تلك الكتيبة المؤمنة المخلصة التي وهبت نفسها لله ، وأوقفت حياتها على نصرة الدين ، وضحت بالمال والأهل والوطن في سبيل الله، ما كان الله تبارك وتعالى أن يضيعها بخيانه خائن أو بخدعة مخادع .

إن من دلائل النبوة القاطعة علم رسول الله ﷺ بتفاصيل تلك الخيانه المزرية وتحديد مكان المرأة التي تحمل جسم الجريمة ، أي امرأة تلك التي تجسر على مثل هذه المهمة الانتحارية إلا أن يكون لها قلب أسد ؟ ، أو يكون حقدها على الإسلام وكراهيتها للمسلمين ، فوق كل رهبة وخوف ، ويمضى الفرسان الثلاثة حيث أمرهم رسول الله ﷺ ليجدوا المرأة ومعها الكتاب ، الله أكبر .

ثم ماذا بعد ؟ ، ما هو التصرف الطبيعي حيال تلك الخيانة العظمى ؟ ، يأتي رسول الله ﷺ بالكتاب وبمن أرسله ليوقفه في محاكمة عادلة يكفل له فيها حق الدفاع عن نفسه ليذكر دوافعه القهرية للجريمة .

وتبدأ المحاكمة بنداء معاتب حزين ... يا حاطب ، عتاب رقيق غير أنه يكاد يزيب لحم الرجل وعظامه ، يا حاطب ، يا من ربيتك على عيني ، وبذلت لك طاقتي وجهدي ، وأخلصت لك نصحي وما كتمتك خيراً قط أعطانيه الله تبارك وتعالى لأنجو بك من الجحيم ، ما حملك على هذا ؟ ، كيف فعلت بجند الله ونبي الله ؟ .

ما تلك الدوافع التي اجتاحتك عن قمة إيمانك ، وألقت بك بعيداً بعيداً وراء تخوم الإنسانية في بئر سحقيق من الخيانة والجاسوسية واللاإنسانية ؟ ما هذا ياصاحب رسول الله ؟ .

إن في الحلق غصبه ، وفي النفس مرارة ، وفي القلب دعاء أن ينجيك الله تبارك وتعالى من تلك المهلكة .

وجاء دور الرجل في الدفاع عن نفسه ، وسوق دوافعه على وهنها وعدم

ارتقائها إلى مستوى تبرير تلك الجريمة النكراء .

جاء جواب الرجل منكسراً حزيناً يقطر ألما وندماً وينم عن صراع نفسى رهيب عاشه الرجل المهاجر المجاهد الذى خلف وراءه فى مكة قرابة ضعفاء فى يد قوية قاسية لم تعرف الرحمة إليها من سبيل .

يارسول الله لا تعجل عليّ ، إننى كنت امرءاً ملصقاً بقريش ، لم تكن لى جذور فيها تضفى على أهلى الحصانة والمنعه ، إننى عليهم وافد غريب ، لا كرامة لى عندهم إلا أن أكون على سفاهتهم وضلالهم ، أما وقد فارقتهم إلى الحق واتبعت النور الذى أنزل معك فإنى وقرابتى أهون عليهم من الذر لن يتورعوا أن يسيموهم سوء العذاب، لهذا يارسول الله أردت أن أتخذ عندهم يداً ، فالقوم وإن كانوا على ما هم عليه من الرجس والرزيله فما زال فيهم بقية من أخلاق أبيهم إبراهيم عليه السلام ، إذ يحفظوا الجميل لمن يسدى إليهم جميلاً .

هذا ما أردت والله أعلم بما أردت ، ويقينى أن الله ناصرك ، وأن كتابى هذا لن يضيعك أبداً بحفظ الله ونصره لك .

ساق الرجل مبرراته بصدق وأمانه ، شكى ضعف شكيمته ، وقلة منعته ، وذل غربته ، وهوانه على القوم ، صدق الرجل فى سوق دوافعه ، إنه الخوف على نساء كسيرات لا ناصر لهن ولا معين ، وأطفال ضعفاء لا يقوون على مجابهة سفهاء قريش وحقدهم على الإسلام وإلحاقهم الأذى بمن تحت أيديهم من المسلمين وذويهم ، إنها دوافع ربما تكون لها وجاهتها على المستوى الفردى ، أما أن تؤدى إلى خيانه نبى ورسالة وجيش أمة بأكملها ، فلا ... .

لكن رسول الله ﷺ قد رحم ضعفه وقلة حيلته ، وذكر له هجرته إلى الله ورسوله ، وجهاده فى سبيل الله تبارك وتعالى ونصرة الدين يوم كان المسلمون قلة ، مستضعفه يتخطفهم الناس من كل مكان .

يوم كان الإسلام نبته ناشئة تعصف بها أنواء الكفر والشرك والعناد فحماه

الله عز وجل بقوة إيمان حاطب وإخوانه ، ونصره الله بجهاد حاطب وإخوانه إذ باعوا أنفسهم ، وضحوا بكل غال وثمين فى سبيل نصرة الدين فكانوا هم بدر الإسلام الذى سطع وسط غياهب الكفر والضلال فأشرقت على إثره شمس الإسلام الذى بددت ليل الزور والبهتان ، وأضاءت جنبات الكون ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

اغمد سيفك يا عمر ، فالرجل ليس منافق ولا مرتد ، إن جريمته كبيرة كبيرة لكن عطاءه للإسلام أكبر وأجل ، اغمد سيفك يا عمر ، حسبه أنه بَدْرِيّ قد ترك الأهل والمال والولد وجاء لينضم إلى الركب المطارد المستضعف ، فأعز الله به الإسلام وبإخوانه ، أغمد سيفك يا عمر ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فما لأيديكم البيضاء على الإسلام أن تلطخها أى ذنوب ، اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

حسبك هذا يابن أبى بلتعه ، فتلسعك رحمة الله ، وليسعك حلم رسول الله ﷺ ، وخذ مع هذا العفو ما تقربه عينك ، ويثلج صدرك ، وهنيئاً لك يا بدرى أن غفر الله إساءتك وشكر لك سابق صنيعك للإسلام ، إنه الخلق الكريم ، والحلم العظيم ، والصدر الرحيب الذى يحتضن الضعفاء المنكسرين ، ويرحم ذلهم ، ويعفو عن زلتهم ، إنه الخلق العظيم الذى استلهمه الرضى نظماً رائعاً حيث قال :

اعذر أخاك على ذنوبه ... واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيـ ... ـه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ... وكل الظلوم إلى حسيبه
واعلم بأن الحلم عند الغيـ ... ـظ أحسن من ركوبه [1]

---

(١) آدب الدنيا والدين .

المبحث الثانى
[لا تثريب عليكم اليوم]

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس

صلى الله وسلم وبارك عليك ، يا من تهدى الزهور لمن غرس الشوك فى طريقك وتنير الطريق لمن حاول بظلمته الصد عن نورك .

وما من أحد أكثر غرساً للشوك فى طريق رسول الله ﷺ من قرابته الذين كان يؤمل فيهم النفع ويرجو منهم النصرة والمعونة ، آذوه إذ طمع فى الاحتماء بهم ، وطاردوه إذ أراد اللجوء إليهم ، حاربوا النور الذى جاء به ، واستمسكوا بسفاهتهم ، وحالفوا الشيطان عليه ، حاصروه فى الشعب ثلاث سنين هو ومن اتبعه ، وتعاهدوا على قطيعة الرحم فعذبوهم بالجوع والوحدة ، ثم اجتمعوا لقتل أكرم خلق الله على الله عز وجل ، فأعمى أبصارهم كما عميت قلوبهم ، وعصم نبيه الكريم ، فخرج مضطراً من أرضه ودياره ، منبت طفولته ، ومرتع صباه ، وتألق شبابه ، أرض ذكرياته وأحلامه ، موطنه الحبيب ، حرم الله ومهبط الوحى المبارك .

خرج رسول الله ﷺ مطارداً مطلوباً ، ضارباً فى كبد الصحراء يسلمه النهار إلى الليل ويدفعه الليل إلى النهار ، حتى قدم المدينة المنور فآواه الله ونصره وأيده بكتائب الإيمان ، فكان الظفر وكان التمكين ، وكانت الغلبة والعزة ، وهاهو اليوم قد عاد بنصر الله المؤزر وفتحه المبين ، عاد إلى أحب أرض الله إلى الله وإلى رسوله ﷺ .

عادل من نفس الطريق الذى يحكى كل معلم من معالمه مشهداً حزيناً من قصة الخروج المؤلمة إذ لم يرق للقوم فرارة بنفسه ودينه نذهبوا يقتفوا أثره ضناً

عليه حتى بهذا الخروج فلا حقوه فى الصحراء ملاحقه عنيده قاسية حتى رق له الغار فحمله في القلب وأطبق عليه الجفن ، واحتضنه بحنانه ، فأخفاه عن الأعين المحدقة الآثمة ، وأنقذه من قسوة القلوب الصخرية عاد ﷺ ربما يحمل تلك الجراحات الغائرة فى قلب القلب ، وتلك الذكريات المؤلمة الحزينة .

فالقسوة بمرارتها وبشاعتها قد تتوقع من بعض الغرباء الذين لا تجرى دماؤهم في عروقك ولا تنشق أنت وهم عن أصل واحد ، أما أن تكون من أقرب الأقربيين إليك ، أما أن تكون من الأهل والرحم والعشيرة ، فالجرح إذاً أشد إيلاماً وأعظم بشاعة وأعمق نفاذاً .

عاد رسول الله ﷺ بعد أن شبت الدعوة فتية ندية ، وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

عاد ظافراً ظاهراً مؤيداً قوياً ، فشتان ما بين الخروج والعودة شتان مابين الأمس المؤلم الحزين ، واليوم المشرق السعيد شتان بين الكفر الأمس شرساً عنيداً وبينه اليوم منكسراً وجلاً ذليلاً ، جاء الصناديد مدحورين مقهورين صاغرين متوقعين جزاء ما اقترفت أيديهم الآثمة .

بالأمس كانوا هم البطاشين الجبارين الظالمين القاهرين ، واليوم جاءوا رسول الله ﷺ بؤساء ضعفاء أذلة مقهورين يسألون الصفح ويرجون الرحمة ويخشون سوء العاقبة ، وها هو أبو سفيان بن الحارث وقد كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وأكثرهم تحرشاً به وأعنفهم حرباً عليه ، وهو من ؟ ابن عمه وأقرب الناس إليه ، حقيقة تضاعف الألم وتملأ النفس أساً ومراره .

جاء اليوم مؤمناً مطيعاً يطلب الصفح ويناشد الرحم ، التى طالما مزقها واستخف بصراخها ، جاء مستنجداً بمشورة ابن عمه عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه ، ما ينفعنى اليوم يا عليّ عند رسول الله ﷺ ، وما معذرتى لديه ؟ ، ويرد

عليّ رضي الله عنه الواثق من أخلاق رسول الله ﷺ .

« إئت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال أخوة يوسف ليوسف ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾[يوسف ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه مقالاً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] (١) .

الله أكبر ، لا تثريب عليكم اليوم ، لا تخافوا نقمة الرجل الذى ملكه الله عز وجل رقابكم ، لا تخافوا سطوة الرجل الذى استنجد بكم يوماً فكنتم أنتم الرمضاء المحرقة ، لا تخافوا الرجل الذى خذلتموه وآذيتموه ونفرتم له المرة تلو المرة ، وأغريتم به سفهاءكم ، إذ أنتم أشد منهم سفاهة وجهلاً ، وهو يحمل إليكم عز الدنيا والآخرة ، رغم أنه الحريص عليكم الباذل جهده لاستنقاذكم حتى عاتبه الله تبارك وتعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء : ٣] ، وها قد دارت عليكم الدائرة .

لكنه ﷺ يؤمنكم من فزعكم وقت جئتموه راهبين نادمين ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ ، عبارة حانية من قلب رحيم ثم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ففاضت مشاعر أبو سفيان بن الحارث أبياتاً تقطر حسرة وندماً منها:

لعمرك أني حين أحمل رايةً ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

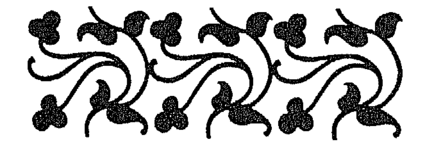
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أُهدى فأَهْتَدى

هدانى هادٍ غيرُ نفسى ودلّنى ... على الله مَنْ طَرَّدْتُ كُلّ مُطَرَّد

---

(١) زاد المعاد ، أخرجه الحاكم (٤٣/٣ ، ٤٤) من حديث ابن عباس وسنده جيد وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتنى كل مطردٍ » ، وهنا تتدافع الأفكار ، وتتزاحم المعانى ، وتعجز العبارة ، ويتراجع القلم إجلالاً وتعظيماً لذلك الموقف المهيب ، تاركاً فكر القارئ الكريم ليسبح فى عالم فسيح جليل مادته حلم رسول الله ﷺ ، وأثيره تلك الروحانية الرفيعة الذى تملأ جوانب النفس وتملك على القلب شغافه .



المبحث الثالث

[اللهم طهر قلبه]

هكذا كان رسول الله ﷺ واسع الحلم ، جميل الصبر ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويتألف النفوس ، ويتودد القلوب ، « قد وصفه الله تعالى في التوراة من قبل أن يبعثه ، فقال : محمد رسول الله عبدى المختار لافظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح » (١) .

يتجاوز عن إساءة المسيء ، ويحلم على الجاهلين ، ويحتضن العصاه الشاردين ، ليغسل عنهم أدران المعصية ويستأصل بريقها الزائف من قلوبهم بنور الحق وجمال اليقين ، والقصة التى بين أيدينا الآن تبين مدى حرص رسول الله ﷺ على كل فرد فى الأمة وضنه به على الشيطان ، وبذل قصارى جهده فى استنقاذه من براثن المعصية والسير به قدما فى طريق النور المبين .

« أتى شاب إلى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ، فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : قربوه ، إدْنُ ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال له النبى ﷺ : « أتحبه لأمك ؟ قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ، قال النبى : كذلك الناس لا تحبه لأماتهم ، أتحبه لابنتك ؟ ، قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ، فقال النبى : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ؟ حتى ذكر العمة والخاله وهو يقول فى كل مرة : لا جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه .

ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر الشاب وقال : « اللهم طهر قلبه ،

(١) الإحياء (٢/٣٦٥) .

واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا » [(١)] .

إن الشهوة قد ركبت في الطبيعة البشرية تركيباً رئيساً مهمته ! استمرارية الحياة والحافظ عليها ، فشهوة البطن تعمل على حفظ الإنسان من التلف ، وشهوة الفرج تعمل على حفظ النوع وعمارة الأرض ، وشهوة المال تحث على السعي والعمل والدأب ، وهكذا قد جعل الله سبحانه وتعالى الشهوة في الإنسان سبباً من أسباب استمرار الحياة غير أن الله تبارك وتعالى قد قننها للإنسان ، وجعل نفعها في الاعتدال بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وجعل لها المصارف الشرعية النظيفة التي تبقى على الإنسان إنسانيته ، وترتفع به عن الدنايا وتحفظه من السقوط وجعل لها ضوابط ومحاذير .

فقد حرم الامتناع عن الأكل والشرب حتى الموت وعده إتلافاً للنفس يعاقب عليه الله سبحانه وتعالى أشد العقاب كما حذر من الإفراط ونهى عنه فقال عز من قائل : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)** ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقال نبيه الكريم ﷺ : « **ما ملأ آدمي وعاء شر من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »** [(٢)] .

كما أمر تعالى بطيب المأكل والمشرب حيث قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)** ﴾[البقرة : ١٧٢] ، وحذر رسول الله ﷺ من أكل الحرام وبين سوء عاقبته فقال : « **كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به »** [(٣)] .

---

(١) الإحياء (٢/٢٩٣) ، قال محقق الإحياء ، رواه أحمد بإسناد جيد ، رجاله رجال الصحيح .
(٢) الترمذي .
(٣) صحيح الجامع .

أما شهوة المال فقد دل الله سبحانه وتعالى الإنسان على موارد الرزق الحلال وحذر وأغلظ العقوبة على التعدى والظلم والعدوان فى تحصيله فقال : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

وقد أمر الله تعالى بالصدقة فى المال الحلال وفرض الزكاة لتطهيره من ناحية ، ولتحقيق الرحمة الإنسانية والكفالة الإجتماعية من ناحية أخرى فقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

أما شهوة الفرج وهى أغلظ الشهوات فقد أحاطها الشرع الحنيف بالمحاذير وبين الطرق الشرعية النظيفة لإشباع تلك الطاقة الطبيعية ، بل وجعلها عبادة وقربة إلى الله تبارك وتعالى حين يراد بها الإحصان والعفاف والولد الصالح كما قال رسول الله ﷺ : « ... **وفى بضع أحدكم صدقة** » ، قالوا : يارسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « **أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر** » (١)

ونهى الشارع الحكيم عن كبت تلك الطاقات والأضرار بها ، وكره التبتل والرهبنة كما جعل لذوى الطاقات الخاصة سعة فى تعدد الزوجات لتظل الحياة طاهرة نظيفة ثم غلظ العقوبة الدنيوية والأخروية الجسدية منها والنفسية على التعدى والانحراف فقال عز من قائل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

---

(١) صحيح مسلم

الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور : ٢] ، وهذا حد الزنا للأبكار من الرجال والنساء ، أما المحصن فالخطب أعظم والعقوبة أشد وأردع إذ أنها الرجم حتى الموت .

عن جابر أن رجلاً من أسلم جاء النبى ﷺ فاعترف بالزنا ، فأعرض عنه النبى ﷺ حتى شهد على نفسه أربع مرات ، قال له النبى ﷺ : « **أبك جنون ؟** قال لا ، **قال أحصنت** ، قال : نعم ، **فأمر به فرجم بالمصلى فلما أذلقته الحجاره فر فأدرك فرجم حتى مات** »[1] .

ذلك أن الزنا هتك للحرمات ، واختلاط للأنساب ، وتدنيس للمجتمع وإباحيّه قذرة مقيتة وسقوط بالإنسان إلى ما دون البهيمة بدركات ، والفطر السليمة والقلوب المؤمنة النظيفة تأبى الإغراق فى الشهوة المباحة ، كما تنفر من الرزيلة وتأبى إلا الطرق الشرعية النظيفة الراقية لإشباع تلك الشهوات .

أما المرضى بسعار الشهوة فللرذيله فى قلوبهم بريق أى بريق ذلك أن إبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين يلقى عليها هالة من مادته النارية المتقدة فيتدافعون إلى ذلك البريق الشيطانى تدافع الفراش إلى النار فتنشب فيهم الشهوة نشوب النار فى الهشيم فتخلفهم جسداً قذراً لا روح فيه ولا حياة .

يقول صاحب التذكرة – رحمه الله – :

« الأعمى عن التقوى الذى أخذت سمعه وبصره الشهوات يرها ولا يرى النار التى هى فيها وإن كانت باستيلاء الجهالة ورين الغفلة على قلبه كالطائر يرى الحبة فى داخل الفخ وهى محجوبة عنه ولا يرى الفخ لغلبة شهوة الحبة على قلبة وتعلق باله بها وجهله بما جعلت فيه وحجبت »[2] .

---

(١) صحيح البخارى ، باب الرجم بالمصلى كتاب الحدود

(٢) التذكره

هكذا يصورها الشيطان اللعين لفريق من الشهوانيين بينما صورها لفريق آخر نهر من الرى وسط صحراء حيوانتهم المتعطشة دائماً فيلهثون بإثرها وإذ بها ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور : ٣٩] .

عافانى الله وسائر المؤمنين من سخطه وسوء عقابه ، ولأن المعصية مذلة ونقيصة مزريه ، فإن معظم العصاه يحاولون جاهدين حجب نقائصهم ومخازيهم عن الناس عامة وعن الصالحين بوجه أخص لما للصالحين من الرهبة والإجلال والتقدير وهؤلاء أرجى لعفو الله عز وجل وأبقى لطهارة المجتمع من أن تشيع فيه الفاحشة ، إذ يقول رسول الله ﷺ : « **كل أمتى معافى إلا المجاهرون ، وإن من المجانه أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه** »[(١)] .

إن المجاهرين بمعاصيهم ، المتفاخرين بدناياهم ، أبعد من رحمة الله عز وجل لجرأتهم عليه وهتك ستره عليهم فما بال هذا الشاب الذى رضى بالله رباً والإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، ما باله يصر على كبيرة من أخطر الكبائر وأقبحها على النفس البشرية ، ليس هذا وحسب وإنما قد تمكنت منه غاية التمكن حتى أشربها قلبه ، فلا يستحى أن يجاهر بها ولا يتورع عن محاولة الحصول على الإقرار بها ، ليس من كبير عشيرة ، ولا من صالح قوم ، إنما من رسول الله ﷺ وعلى ملإ من صحابته الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين ، أى جرأة هذه ؟ ، وأى انتكاسة ، نأت بالرجل عن ضوابط الضمير

---

(١) صحيح البخارى ، باب ستر المؤمن على نفسه .

الإنسانى ، وهوت به إلى تلك البهيمة المنحطة ؟ .

كيف يتأتى لإنسان الجمع بين طهارة الإيمان ونجاسة الزنا وجريمة الإصرار عليه ، يقول ابن القيم – رحمه الله – : « نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرها بين النجاسات من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً ، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر » [(١)] .

إن الرجل مريض بداء الشهوة القبيح ، وقد تمكن العطب منه أيما تمكين واستحوز عليه أيما استحواز ، حتى طلب من الحارس الأمين على محارم الله ﷺ أن يقره على استباحة تلك المحارم ! ، وصاح الناس به استقذاراً لفحشه واستنكاراً لجرأته على رسول الله ﷺ ، ولكن رسول الله ﷺ أدرك أنه أمام مخلوق منتكس الفطرة لا تنفعه الذكرى ولا تجدى معه الموعظة ، فعدل إلى ما هو أنجح فى العلاج ، فقال : قربوه ، اتركوه لى فأنا أولى به منكم ، بل أولى به من نفسه ، ثم وجه الخطاب إلى مريضه فقال : « ادنُ » كلمة فيها من الود والحنو ، ما يسكن هلع الرجل ويروض نفسه المستوحشه .

وهنا بدأ العلاج ، أخذ رسول الله ﷺ تستحث فيه نخوة العربى وغيرته على نسائه وتضحيته بالنفس والنفيس فى سبيل الزود عن حمى محارمه ، فقال ﷺ : « أتحبه لأمك ؟ » سؤال بمثابة الصعق الكهربائى الذى يعالجون به العقول المغيبة رجاء إفاقتها ، بالطبع لا يارسول الله ، جعلنى الله فداك .

كيف لأمى أن تكون ... ؟! ، وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك ؟ أتحبه لأختك ، أتحبه لعمتك ؟ ، أحبه لخالتك ؟ ، ومضات سريعة

---

(١) إغاثة اللهفان .

ومركزة وقوية التأثير تعيد للعقل المغيب إدراكه وتوازه ، تجلو الران عن القلب المصفد بظلمة المعصية ، فتتهاوى أغلاله غل إثر غل ، حتى يتحرر من تلك الأغلال بنور الحق وفيض الإيمان .

وهكذا ظل رسول الله ﷺ يعرض الصورة جزءاً جزءً على عقل الرجل وقلبه ونخوته ، فيستبشع أن تكون أمه أو ابنته أو أخته أو .... هى التى باعت دنياها وآخرتها ، وشرف أهلها بثمن بخس – لحظات من المتعة الزائفة القذرة الدنيئة ، تذهب لذتها ويبقى عارها أبد الدهر – ثم يطرق رسول الله ﷺ الحديد ساخناً فيقول : كذلك الناس لا يحبونه لأماتهم ، لبناتهم ، لأخواتهم .... .

هكذا أخذ رسول الله ﷺ يخلخل انحراف الشهوة فى الرجل ويطفئ بريقها الكاذب فى قلبه حتى بدت تلك الفعلة فى حسه قبيحة مقززه منفره ، وهنا أصبح القلب المستفيق معداً لاستقبال الطهر والعفاف ، فوضع رسول الله ﷺ يده المباركه على صدر الشاب ودعا له بطهارة القلب ومغفرة الذنب وإحصان الفرج ، فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا ، إنها بركة الإخلاص فى الدعوة ، والحرص على استنقاذ الناس من بين أنياب الشيطان ومخالبه ، حتى وإن أحكم وثاقه حول أعناقهم ، واختيار أنجح الوسائل والتقدير الجيد لكل موقف ، والبحث لكل إنسان عما يصلحه ولله درء القائل :

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف فى موضع الندا



الفصل الثالث
حلمه ﷺ بالنساء

المبحث الأول : غارت أمكم .

المبحث الثاني : وجعل يتغير وجهه .

المبحث الثالث : ماهي بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

المبحث الرابع : فيسلم ثم يقول : كيف تيكم .

المبحث الخامس : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة .

المبحث السادس : فأمر أبا أسيد أن يجهزها .

المبحث الأول
[غارت أمكم]

روعــوه فــتــولى مــغــضــبــا أعلمــتم كــيف ترتاع الظبــا ؟

خُلقت لاهيـــة ، ناعـــمـــة رُبما روعــهــا مَــرُّ الصَّــبــا ! (١)

قيثارة هى المرأة ، رقيقه جدُّ رقيقه ، تداعب أوتار قلبها الكلمة الدافئة وتنعش وجدانها البسمة الحانية من زوج محب عطوف ، فإذا بها تعزف أرق نغمات الإخلاص والحب والمودة والطاعة ، وتشد أوتارها الكلمة القاسية ، والمعاملة الفظة ، فتصدر نشازاً صاخباً يحطم فى طريقه كل هادئ وجميل ، وغالباً يستبشع الرجل رد الفعل العنيف متجاهلاً دائماً الأسباب التى أدت إلى تلك الردود غير المرغوبة ، متناسياً وصف الله تبارك وتعالى للمرأة بالرقة والنعومة والشاعرية وقلة الإحتمال ، وشراسة ردود الأفعال فى قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف : ١٨] .

أما رسول الله ﷺ فلم يكن ليتجاهل الأسباب التى تثير غضب المرأة ، وتشعل غيظها ، ولهذا فإنه ﷺ لم يكن ليثيرها إبتداءً ، فإن أثيرت على غير رغبة منه ، عالجها بحكمته وحلمه الحانى ، ورويّته ، وهاهو ﷺ عند أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، الزوجة المحبة الهادئة الودود الرزينة القانعة بنصيبها من رسول الله ﷺ ، السعيدة به كل السعادة .

وبينما هى هادئة النفس هانئة الفؤاد إذ تهب عليها ريح عاصف تقتلع

---

(١) ديوان شوقى .

الهدوء والسكينة من نفسها إقتلاعاً ، وتضرم النار فى قلبها الأخضر فتحيل نغماتها الرقيقة الهادئة صخباً يحطم كل شىء فى طريقه ؛ ترى ما الذى فعل بالصديقة بنت الصديق كل هذا فأخرجها من سكينتها وإتزانها ودفع بها إلى الثورة العارمة ؟ .

اصْغ السمع إذاً لأنس رضي الله عنه إذ يقص الخبر فيقول : « كان النبى ﷺ عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام ، فضربت التى النبى ﷺ فى بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع النبى ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول : غارت أمكم ، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التى كسرت صحفتها وأمسك المكسورة فى بيت التى كسرت »(١) .

إنها الغيرة إذاً قد أتت بالريح العاصف ، أرسلت إحدى زوجات رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ طعاماً عند عائشة رضى الله عنها ربما بمشاعر الإيثار ، والرغبة عن الإستئثار بطيب الطعام دون رسول الله ﷺ .

مشاعر رقيقة محمودة ، لولا أنها أتت فى غير موضعها ، فأساءت إلى مشاعر عائشة رضى الله عنها ، وقطعت عليها سعادتها بخلوص رسول الله ﷺ لها فى ذلك اليوم ، وكان ذلك هو الفتيل الذى أدى انتزاعه إلى تفجر نيران الغيرة ، التى أكلت فى طريقها كل رغبة للهدوء وضبط النفس وكظم الغيظ ، وامتدت يد الإحتجاج والثورة إلى القصعة فكسرتها ، حطمت عائشة رضى الله عنها القصعة – رمز التعدى – فكان إنذاراً عملياً لكل من تسول لها نفسها

---

(١) البخارى ، باب الغيرة ، كتاب النكاح .

ويغريها قلبها بالاقتراب من رسول الله ﷺ فى غير يومها ، أو يراودها الأمل أن تكون الغائبة الحاضرة ، كسرت القصعة ، وانكسرت معها حدة الغضب ، وعاد الهدوء ثانية إلى البيت .

كان يمكن أن تتغير النتائج لو قوبلت ثورة الزوجة بثورة مضادة من الزوج كان يمكن أن يحدث هذا لولا أن صاحب الموقف هو رسول الله ﷺ الرؤوف الرحيم ، الذى تأخذ عنه الأمة شرعتها ومنهاجها .

ضم رسول الله ﷺ القصعة وجعل فيها الطعام ، وظل ممسكاً بها فى حسن أدب ، وجميل تواضع حتى انتهى القوم من الطعام ، وهو يعتذر عن الموقف لجلسائه بقوله : « غارت أمكم » ثم ماذا ، انتهى الموقف بالنسبة لعائشة رضى الله عنها بعد أن ترك فى نفسها - بلا شك - أثراً عميقا جعلها تعاهد نفسها على عدم تكراره لكن الموقف لم ينته - بعد - بالنسبة لأم المؤمنين صاحبة الصحفة المكسورة .

إن رسول الله ﷺ قد تجاوز عن حقه ، لكنه لا يمكنه التجاوز عن حق غيره ، لهذا فقد حبس الصحفة المكسورة ، وأرسل صفحه عائشة رضى الله عنها بدلاً منها على قاعدة : من أفسد شيئاً فعليه إصلاحه .

منتهى الحلم على من كسرت الصفحة ، ومنتهى العدل لمن انكسرت صحفتها - رضى الله عنها - وانتهى الموقف ، لكن ظلاله لم ، ولن تنتهى أبداً من ذاكرة التاريخ ، ولن تبهت روعتها فى قلوب الأمة ، إذ أرسلها رسول الله ﷺ رسالة خالدة ، تعلم الرجال كيف يقابلون بركان الثورة عند الزوجة المحبه المؤمنه بفيض من الحب ، ومزيد من الصفح والغفران ، ويعلم النساء ضرورة ضبط النفس ، ومحاولة الهدوء واتزان الانفعال ، فتعود للبيت سكينته وسعادته ، فلعلنا نقتدى بصاحب الخلق العظيم ﷺ .

المبحث الثانى
[وجعل يتغير وجهه]

مرة أخرى مع عائشة رضى الله عنها ، تلك المدرسة الرائعة ، التى تعلمت الأمة من خلالها منهج رسول الله ﷺ لبناء الإنسان الكامل ، والبيت الناجح ، والمجتمع الراقى ، وهاهى تعلمنا موقف آخر من مواقف الحلم الراشد لرسول الله ﷺ حيث تقول : « **حشوت للنبى ﷺ وسادة فيها تماثيل كأنها نمرقة ، فجاء فقام بين البابين وجعل يتغير وجهه ، فقلت ما لنا يارسول الله ؟ قال : ما بال هذه الوسادة ، قالت : وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها ، قال : أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، وأن من صنع الصور يعذب بها يوم القيامة ، يقول : أحيوا ما صنعتم** » [(١)] .

بمشاعر الزوجة المحبة الحانية ، صنعت عائشة رضى الله عنها وسادة لرسول الله ﷺ ليتكئ عليها فتمنحه قسطاً من راحة البدن ، وجعلت غطاءها منقوشاً بالصور ، لتمنحه قسطاً من راحة النفس ، وبهجة الخاطر ، وهكذا ظنت عائشة رضى الله عنها ، وترقبت عائشة عودة رسول الله ﷺ لتدخل السرور على نفسه بتلك المفاجأة الجميلة .

ووقعت الوسادة من نفس رسول الله ﷺ موقعاً غير الذى تمنته عائشة رضى الله عنها ، وإذ بوجهه الكريم يتغير وترتسم عليه أمارات الغضب وتشتد ، وإذا كان الغضب قد انطبع على وجهه الشريف بتلك الصورة الشديدة فلابد وأن يكون فى قلبه أعتى وأشد .

---

(١) البخارى ، باب إذا قال أحدكم أمين ، والملائكة فى السماء أمين ، كتاب بدء الخلق .

وارتابت عائشة رضى الله عنها وانطلق سؤالها الحائر الوجل المحبط ، ما لنا يارسول الله ؟ ، أى شيء قد أصابك بهذا الضيق الشديد ؟ ، فديتك نفسى يارسول الله ، يا لها من روعة حقيقية ، زوج لم تخرجه مشاعر الغضب عن الانضباط والحلم والروية ، وزوجه لم تخرجها مشاعر الإحباط من الاستياء من صنيعها الذى أملت فيه القبول والاستحسان ، عن الطاعة والرجوع للحق وتصحيح الخطأ إن كان ثم خطأ .

ما لنا يارسول الله ! ، هل أسأت من حيثُ أردت الإحسان ؟ ، ما لنا يارسول الله ، وتُستهل الإجابة بسؤال هادئ حكيم « ما بال تلك الوسادة » ؟ ، المشكلة إذاً فى الوسادة التى صنعت لتمنح رسول الله ﷺ شيئاً من الراحة والاسترخاء ، ويسفر رسول الله ﷺ عن سبب غضبته العاقلة المتزنه .

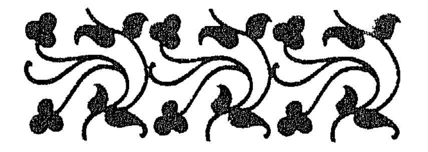
أما علمت ياعائشة ؟ يال الحلم العظيم ، والرفق الرحيم ، كأنما هى طفلته الرقيقة ، يعلمها بأسلوبه الحانى ، ويعاتبها بسؤاله العطوف ، أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ؟ .

ولم تنته مهمة رسول الله ﷺ عند مجرد إبلاغ الحكم الشرعى فقط ، بل احترم عقلية الزوجة الحبيبة ، فساق لها حيثيات الحكم كى تؤمن بها إيمانها بالحكم نفسه « إن من صنع الصورة يعذب بها يوم القيامة » ، لماذا يارسول الله ؟ يقال لهم أحيوا ما خلقتم .

ليست القضية إذاً مجرد صورة للتجمل والزينة ، إنما هى قضية لها أبعاد شرعية تطلبت من رسول الله ﷺ الشرح والتعليل ، غاية الحلم وذروة الرفق رغم المخالفة الشرعية فى مهبط جبريل عليه السلام ، ومع ذلك لم يتعنت ، ولم يستأسد ، ولم يقبح أو يوبخ رغم غضبته الشديدة ، إنما أنكر وترفق ، فبلغ الاستنكار محله ، وأتى ثماره الطيبة ، فتعلمت عائشة حكماً شرعياً جديداً ، وتعلمت

الأمة معها كيف تقول « سمعنا وأطعنا » ، وتعلم الدعاة كيف يكون الإصلاح ، وكيف يتحقق حين يبدأ كل بنفسه ، ويبدأ كل داعية أولاً من بيته ، وكيف يترفق فى معالجة الأخطاء فهل نتعلم ؟ .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبى ﷺ : أوصنى ، قال : **« لا تغضب ، فردد مراراً ، قال : لا تغضب »** [(١)] .



(١) البخارى ، باب الحذر من الغضب ، كتاب الأدب .

المبحث الثالث
[ماهي بأول بركتكم يا آل أبي بكر]

« من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور العين شاء » (١).

إن نهر رسول الله ﷺ فياض بالخير أبداً لا يغيض ، نهر لا يزيدك الإبحار فيه إلا علماً ويقيناً وأدباً عالياً رفيعاً ، تسبح فيه روحك فإذا بها نورانية شفافة قد عادت سيرتها الأولى ويتنسمه قلبك فينتعش ماذبل فيه من الإيمان ويتجدد ما خبا فيه من اليقين

ويغوص فيه عقلك فإذا به يستخرج لآلئ من العلم لا تزداد مع الأيام إلا نفاسة وبريقاً يذيب سحائب الضباب التي تحجب روح الحقائق عن عين القلوب ، وها هي عائشة رضى الله عنها تغوص بنا في بحر حلمه العذب سلسبيل فتقول

« خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء وبذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وقام الناس معه وليسوا على ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا ألا ترى إلى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقالت حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فقالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، جعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من

---

(١) البخاري .

التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذى ، فقام رسول الله ﷺ حيث أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فيتمموا فقال أسيد بن حضير ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فأصبنا العقد تحته » [(١)] .

إن رسول الله وهو فى ذروة الانشغال الذهنى كقائد يفكر ويخطط ويبنى النتائج على الأسباب مستعيناً برب الأسباب ، وهو فى هذه الأوقات العصيبة ، فإنه أيضاً فى أرفع مراتب الإنسانية وأرقى آفاق المشاعر إذ يرضى زوجاته الطاهرات ويحترم مشاعرهن ويرحم قلوبهن ، فيقرع بينهن ليصطحب معه من تسعدها الأقدار منهن بصحبته المباركة الطيبة والسعادة كل السعادة كانت لعائشة رضى الله عنها تلك المره .

وأى سعادة فوق سعادتها بصحبة رسول الله ﷺ فى حله وترحاله ، ويمضى الركب المجاهد على بركة الله عز وجل تحدوه صوب الهدف الأسمى عيون النهار اليقظة النشطه ، وتضمه للراحة والاسترخاء أهداب الليل الحانية وتوقظه لمواصلة المسير خيوط الفجر الوليد ، وهكذا يقطع الركب المبارك الليل والنهار مابين الحل والترحال ، وصولاً إلى الهدف الأسمى للقيام بأمانة التبليغ ، وينهض الجيش بعد نوبة راحة واسترخاء ، ليكمل المسير لكن شيئاً ما يعرقل هذا المسير المبارك ، عقد عائشة ! .

عقد يعرقل مسيرة جيش قائده أعظم نبى وجنوده أعظم بشر بعد الأنبياء ؟ جيش ابتعثه الله عز وجل لاقتلاع جذور الكفر من الأرض وغرس رياض الإيمان واليقين فيها ، ثم أين أقام الجيش لأجل هذا العقد ؟ .

---

(١) البخارى كتاب التيمم .

في صحراء محرقة ، في بقعة من الأرض لا يرق لها قلب ، ولا تندى لها عين وليس مع القوم ماء ، المكث القصير هنا معناه جفاف الحلوق ، وإضاعة الصلاة ، إذْ لا صلاة بدون وضوء والمكث الطويل معناه إضاعة الحياة ، إذ الماء في الصحراء هو الحياة ، ثم ما قيمة عقد يقعد جيشاً وفي تلك الظروف القاسية ؟! ، ترى ، هل هو من النفاسة بمكان ؟ .

وأنى لعائشة أن تلبس نفيس الحلى ؟ وهى التى لا توقد نار بيتها على طعام ما بين ثلاثة أهله في شهرين متتابعين أن هو إلا التمر والماء ، وأنى لرسول الله ﷺ أن يلبس زوجه نفيس الحلى ؟ وهو الذى لا يبقى لنفسه ولا لأهل بيته من حظ الدنيا إلا أدنى ما يقيم الأود ويحفظ عليهم الحياة .

أسئلة عديدة وملحه تدافعت إلى ذهني وذهنك كما تدافعت إلى ذهن جنود الرحمن وسرعان ما انحدرت من الذهن الذى أجهدته إلى اللسان شكاية مريرة لأبى بكر الصديق رضي الله عنه « ألا ترى إلى ما فعلت عائشة » .

سؤال فيه من الإنكسار والاستنجاد بقدر ما فيه من الاحتجاج والتذمر شكاية أحرجت الصديق وأثارت حفيظته على ابنته عائشة رضى الله عنها ويأتى أبو بكر رضي الله عنه بثورته العارمة ليجد رسول الله ﷺ في غاية السكينة والطمأنينة إلى قدر الله عز وجل واضعاً رأسه الشريف على فخذ عائشة رضى الله عنها قد نام

يا له من منظر ملؤه الروعة والجمال ، منظر فيه من فيض المشاعر ما تعجز عنه بلاغة الأدباء ، وتنضب دونه قرائح الشعراء غير أن روعة معانيه تسرى في خلايا المدركين لمعنى المودة والرحمة ، وعبير السكن في حياة الزوجين المتحابين في الله عز وجل ، فتزيدهم إدراكاً لجمال تلك المعانى الرائعة ، وتسرى في قلوب المحرومين المتعطشين إلى تلك الحياة الهانئة السعيدة فتزيدهم

تعطشاً وأمانى ، كما تسرى نحو القلوب الصلبه القاسية فلا تجد إليها سبيلاً ، وكفى بهذا الحرمان لها عقاباً

جاء أبو بكر رضي الله عنه بكل هذا الغضب - وهو الحليم الأسيف - فعاتب عائشة رضى الله عنها مر العتاب وأخذ يطعنها بيده طعنات كانت أقسى على نفسها من طعن السيوف فهى لم تعتد القسوة منه إذ هو دائماً نبع الحب وفيض الحنان ولهذا قالت : « فعاتبنى أبو بكر ولم تقل أبى لأن قضية الأبوة الحنو ، وما وقع من العتاب بالقول والتأنيب بالفعل مغاير لذلك فى الظاهر فلذلك أنزلته منزلة الأجنبى فلم تقل أبى » (١) .

تصارعت مشاعر الحزن والمرارة فى قلب عائشة لكنها لم تغير من جلستها ، إيثاراً لراحة رسول الله ﷺ ، قاست مرارة العتاب ، وقسوة العقاب ، فى صمت وصبر بالغين ، حرصاً على ألا تقطع على رسول الله ﷺ نومته المستقره الهائئة ، ولم لا ؟ وهو الزوج الحليم الحانى ، الذى لم يسفه أحلامها ولم يحطم مشاعرها ، ولم ينكر عليها حبها للزينة والتجمل ، ولم يحطم آمالها فى العثور على هذا العقد إنما نام هادئ النفس مطمئن الفؤاد .

لم يقمه العقد فى هذه الصحراء إذاً إنما أقامه حسن عشرته لأهله ، وجميل مودته وفيض رحمته بهم ، فغمرها بفيض حبه ، ووسعها برائع حمله ﷺ .

وكان حين أصبح على غير ماء ، أن أنزل الله تبارك وتعالى آية التيمم ، فكانت مخرجاً للجمع من حرجهم وضيقهم ، ويسراً للأمة من بعدهم ، وتأكيداً لبركة الطاهرة المطهرة - عائشة رضى الله عنها - لتظل لها مكرمة على

---

(١) فتح البارى .

مر الزمان ، يعرفها لها الأولون والآخرون ، من أمة سيد المرسلين ﷺ ، ثم أرسلوا بعيرها فوجدوا العقد تحته ، فجمع لها الخير كله ، وكان هذا إيذاناً باستئناف المسير

المبحث الرابع
[فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟]

يا ملكا تعبدا مُصَلّياً مُوَحَّدا
مباركا في يومه والأمس ، ميمونا غدا (١)

يالك من مباركة ياعائشة ، كنت دائماً لعظائم الأمور ، وهل يكون لها إلا أولوا العزم من البشر ؟

لكن الخطب تلك المرة عظيم جد عظيم ، فوق احتمال القلب ، فوق حدود العقل ، يفلق الكبد ، ويبدد أجمل ما في الحياة

الأمر تلك المرة لا يلتذ به إلا القلوب النجسه ، ولا تلوكه إلا الألسنة السامة المغرضة ، ولا تسمعه إلا الآذان المريضة الآثمة ، ذلك هو حديث الإفك على من تولى كبره من الله ما يستحق ، إذ كان هدفه الأول بهذا السم الزعاف تقويض الدعوة والقضاء عليها في شخص أكرم خلق الله على الله تبارك وتعالى، وهو رسول الله ﷺ جاهلاً أن الله تبارك وتعالى لا يترك حياة أوليائه لعبث العابثين ، ولا لضلال المغرضين الضالين .

والحديث طويل طويل ، وما أشد قسوته على النفوس المؤمنة والقلوب المخلصة ، وما أقسى بشاعته على الضمير الإنساني المنصف ، وما أكثر بركته على الأمة ، إذ أرسى لها قواعد أخلاقيه ، وسن لها قوانين شرعية وأحاطها بضوابط نفسية وحواجز أمنية . تحفظ لها سلامة كيانها ، وتبقى على ثقتها

---

(١) ديوان شوقي

بنفسها ، وتغلب مشاعر الخير وحسن الظن لديها .

كل هذا قد اكتسبته الأمة من المحنة القاسية ، التى تعرض لها بيت النبوة الطاهر الكريم ، حين أصابه السفهاء بأحجارهم المغرضة الدنيئة ، فأهدى إلينا الخير كله ، وهل تُلقى بالحجارة إلا الشجرة المثمرة ؟ .

ونقتطف من الحديث ما يلقى الضوء على سعة حلم رسول الله ﷺ إزاء عائشة رضى الله عنها فى ذلك الموقف العصيب ، قالت عائشة : « **فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى حين أشتكى ، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ، ثم ينصرف فذلك يريبنى** » (١) .

إشتكت عائشة رضى الله عنها شهراً كاملاً ، كان بالنسبة لها رحمة من الله تبارك وتعالى رغم معاناة المرض إلا أنه قد حجب عنها الفرية الحقيرة ، التى ربما أودت بحياتها – لو عرفتها من البداية – وهى التى تصف نفسها فى ليلة أو ليلتين قاست فيهما جحيم تلك المصيبة قبل نزول براءتها من فوق سبع سماوات فتقول : « **وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى أنى لأظن أن البكاء فالق كبدى** » (٢) .

شهر من المرارة والعذاب والألم الذى يفوق احتماله البشر « قد كلف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها الطويل ، ها هو ذا ﷺ يُرمى فى كل شيء حين يُرمى فى عائشة رضى الله عنها .

---

(١) البخارى باب ، تعديل النساء بعضهن بعضاً ، كتاب الشهادات .
(٢) المصدر السابق

يرمى فى فراشه وعرضه وقلبه ورسالته ، يرمى فى كل ما يعتز به عربى ، وكل ما يعتز به نبى ، ها هو ذا يَرمى فى هذا كله ، ويتحدث الناس به فى المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً ، والله يريد لحكمة يراها ، أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً ، لا يبين فيه بياناً ، ومحمد الإنسان يعانى ما يعانيه الإنسان فى هذا الموقف الأليم ، يعانى من العار ، ويعانى فجيعة القلب ، ويعانى فوق ذلك الوحشة المؤرقة ، الوحشة من نور الله الذى اعتاد أن ينير له الطريق ، والشك يعمل فى قلبه – مع وجود القرائن على براءة أهله – ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن ، والفرية تفوح فى المدينة ، وقلبه الإنسانى المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك ، فلا يملك أن يطرد الشك ، لأنه فى النهاية بشر ، ينفعل فى هذا انفعالات البشر ، وزوج لا يطيق أن يُمَسَّ فراشه ، ورجل تتضخم بذرة الشك فى قلبه متى استقرت ، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم » (١) .

ترى ... ماذا يمكن أن يفعل رسول الله ﷺ ؟ ، وهو قد عاش عذابات فوق عذابات كل البشر ، ذلك أنه أعلى البشر قدراً ، وأرفعهم مكانة ، وأغيرهم على حرمات الله ، وأحرصهم على حرمات الإنسان ؟ ، كيف وحرمته هى التى قد نيل منها ؟ .

بأمى وأبى ما أَلَمّ بك من الأحزان يا حبيبى يارسول الله .

عائشة الطاهرة المبرأة من فوق سبع سماوات قد حبسها المرض فى البيت ، لا تعلم من أمر الإفك شيئاً ولم تسمع بالسموم التى نفثتها الألسنة السامة ، ولم تدر بالنيران التى اضرمتها القلوب الخبيثة فى القلب الطاهر المبارك ، قلب رسول الله ﷺ ، إنما يريبها أنها لا تجد منه اللطف الذى تعودته فى مرضها ، إنه

---

(١) فى ظلال القرآن .

يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ، فقط ، تعتبر ذلك جفاء منه ﷺ لها .

لك الله يا عائشة ! إن من النساء من تعتبر نفسها قد نالت من السعادة منتهاها إذا تعطف عليها زوجها يوماً ، فسأل عن صحتها ، أو حاول الإطمئنان عليها ، إذ تعتبرذلك منه ألطف اللطف وألين اللين ، ذلك أن هذا بالنسبة لها أملاً بعيد المنال ، حيث اعتادت منه الجفاء والغلظة ، وهى ليست المتّهمة عنده ، وهو ليس الجريح النازف .

أما هذا من رسول الله ﷺ الرؤوف الرحيم فقد اعتبرته زوجه رضى الله عنها جفاء وقسوة ، لما اعتادت منه من حسن المعشر وطيب المعاملة ، زوج جريح قد طعن فى أعز ما يملك ، وتعرضت دعوته للإنهار ، وتعرضت مبادئه للتقويض فى مجتمع قد جمع من الأنفة والكبرياء والغيره على المحارم ما جعله يردد ليل نهار :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم [(١)]

فى مجتمع كان يئد البنات مخافة العار إلى عهد قريب كما قال قائلهم عن ابنته :

تهوى بقائى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزّال على الحُرَم [(٢)]

ومع هذا كله يدخل بين الفينة والفينة وهو الجريح الغائر الجرح – ليطمئن على زوجه المريضة والتى كانت وراء تلك الآلام والأحزان ، لكنه الحليم الصابر المحتسب الراجى من الله سبحانه وتعالى المخرج والنجاة وشيئاً فشيئاً يتسع الجرح ويتدفق النزف ويشتد الألم وتزداد الحيرة ، وتضيق الدنيا ، ويلتبس الوحى ،

(١) المتنبى .
(٢) اسحق بن خلف عن كتاب المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

فيأتى رسول الله ﷺ عائشة رضى الله عنها ليحسم الموقف ويضع حداً لتلك الآلام الرهيبة المتفتقة عن أذن تسمع ، وعقل ينكر وقلب حائر ما بين العقل والأذن .

يأتى رسول الله ﷺ عائشة ينشد عندها بصيصاً من نور « فتشهد ثم قال : ياعائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه »(١)

ما أبشعها من مصيبة قد أصابت أكرم خلق الله على الله عز وجل ، كما أصابت قلب عائشة رضى الله عنها فى مقتل ، خاصة حين استشعرت الشك من رسول الله ﷺ

أن يفترى الساقطون المغرضون المنافقون على بيت النبوة المعصوم من الدنس ، فتلك مصيبة أى مصيبة ، أما أن يشك رسول الله ﷺ فتلك مصيبة المصائب ، وقاسمة الظهر ، وزهول ما له من إفاقة .

قلص دمع عائشة رضى الله عنها بيد أن نزيف قلبها قد انسكب كلمات أحر من الجمر ، فقالت : « لقد سمعتم الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ، ولإن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله لا أجد لكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال ﴿ فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ علىٰ ما تصفونَ ﴾ [يوسف : ١٨] »(٢) .

ويشتد الكرب على البيت الطاهر ، ويعنف الإبتلاء على المسلمين ، وتشتد الظلمة فكانت « الآلام التى عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة

---

(١) حديث الإفك « البخارى » ، تعديل النساء بعضهن بعضاً .
(٢) المصدر السابق

كلها ثمن التجربة وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء »[١] .

لكن أحلك ساعات الليل ، هى التى ينبثق منها شعاع الفجر ، وانبثق فجر الخلاص ، وأشرقت شمس الحقيقة ، وتنزلت رحمات أرحم الراحمين ببراءة الطاهرة المطهرة الصديقة بنت الصديق ، الأمينة على عِرض رسول الله ﷺ ، المخلصة فوق كل إخلاص ، نزلت البراءة منحة سماوية من رب العالمين ، وتنزل بها جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين ، فأى كرامة تلك يا ابنة الصديق ؟ ، « **فسُرى عن رسول الله وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : ياعائشة ، أما الله فقد برأك ، قالت : فقالت لى أمي : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل** »[٢] .

كانت الفرية فى الأرض شهراً ، لكن البراءة كانت من فوق سبع سماوات بقرآن يتلى إلى يوم الدين ورددتها ألسنة مغرضة آثمه فى بعض طرقات المدينة ، لكن البراءة رددتها ألسنة ذاكرة وقلوب طاهرة أينما طلعت الشمس أو غربت قرآناً يتعبد به أهل الأرض ، ويترنم به أهل السماء ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾** ﴾ [النور : ١١] .

فمن المحن تأتى المنح ، وعلى قدر المحنة تكون المنحة .

هكذا قد عالج رسول الله ﷺ الأمر بحكمة بالغه ، وحلم واسع ، رغم آلامه المبرحة وحزنه الرهيب ، وهكذا علّم الأمة كيف تكبح بالحلم الغضب ، وكيف يلجم العقل الحمية ، وكيف يسبق التثبت العقاب وكيف يقدم حسن الظن

---

(١) فى ظلال القرآن .
(٢) حديث الإفك ، رواه البخارى .

على سوء المظنة .

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور : ١٢] .

فكم من أنفس أزهقت وكم من بيوت هدمت ، وكم من أعراض لوثت ، وكم من عزة سحقت ، وكم من عار طارد ظلماً الأبرياء الشرفاء كل ذلك بسم الألسن القاتلة ، وحقد القلوب الحاسدة ، واستسارت الغضب الأعمى والحمية الطائشة .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – :

« لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يوميذ وخاضها الإسلام ، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التى خاضها رسول الله ﷺ ، وخرج منها منتصرا كاظماً آلامه الكبار محتفظاً بوقار نفسه ، وعظمة قلبه ، وجميل صبره فلم يؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاذ صبره وضعف احتماله ، وآلآلام التى تناوشته لعلها أعظم الآلام التى مرت به فى حياته » [١] .

صلى الله عليه وسلم وبارك ياحبيبى يارسول الله ، نفديك بكل غال ونفيس ونردد مع حسان بن ثابت رضي الله عنه كلماته المخلصة الرقيقة .

فـإن أبـى ووالـده وعـرض   لعـرض محمـد منكـم وقـاء [٢]

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ

(١) فى ظلال القرآن .
(٢) ديوان حسان بن ثابت .

اللَّه هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) ﴾

[النور : ١٢ - ١٨] .



المبحث الخامس
[هن حولي كما ترى يسألنني النفقة]

وشـد من سـغب أحـشـاءه وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجـبـال الشُّمّ من ذهب عن نفـسـه فـأراها أيما شـمـم
وأكـدت زهده فـيـهـا ضـرورته إن الضرورة لا تعدوا على العصم [(١)]

صلى الله عليك وسلم وبارك ياحـبـيـبى يارسـول الله ، كم كـاد لك الحاسدون ، وكم اعترض طريقك الجهلاء الحاقدون ، وكم ناوءك المعاندون ، وكم تآمر عليك المتآمرون ، وقد ردهم الله تبارك تعالى مخذولين مدحورين ، ورد كيدهم فى نحورهم ، فانقلبوا – بنعمة الله على نبيه – خاسرين ، فماذا لو كـانت المؤامـرة تلك المرة من داخل البـيـوت الطاهرة ، وأبطالهـا هن أمـهـات المؤمنين أنفسهن – عليهن رضوان الله ورحمته – ، ماذا لو كانت ضربة من حيث مأمن ، والثورة قد انطلقت من الجبهة الداخلية ، المنوط بها توفير الهدوء فى البيت النبوى والعمل على راحة رسول الله ﷺ ومحاولة التخفيف من وطأة الأعباء الملقاه على عاتقة .

القصة حزينة لكنها رائعة المعانى سامية الدلالات ، عطرة الأنسام نقتطف منها ومضات رائعة ، وكلها رائعة .

« فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فدخل فوجد النبى ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكتاً ، قال : فقال : لأقولن شيئاً أضحك النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، لو رأيت بنت خارجة (زوجة عمر) سألتنى النفقة

---

(١) الإمام البوصيرى برقم (١٧٤٨) .

فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين » (١) .

أن رسول الله ﷺ بشر في أسمى درجات البشرية الراقية ، قد حاز الكمال الإنساني في أعلى مراتبه لذلك لم يكن بالمتكبر ، ولا بالفظ المستبد ولم يكن ليصادر الحريات ، ويكبت الرغبات ، وها هو ﷺ مع أزواجه الطاهرات الفاضلات تراجعه إحداهن وتغاضبه إلى الليل فلا يضرب ولا يقبح ، إنما يصبر ويحلم ويترفق بهن ويتودد لهن حتى يرضين .

أما المراجعة تلك المرة فكانت فوق احتمال رسول الله ﷺ ، حيث طالبنه بالسعة في النفقة عليهم ، ولم يكن المطلب في حد ذاته متجاوزاً حد الإعتدال فهن الزاهدات التقيات الراضيات بنصيبهن من رسول الله ﷺ الصابرات على شظف العيش القانعات بحد الكفاف أو بما دونه ، لا توقد في أبياتهن النار ما بين ثلاثة أهلة في شهرين متتابعين ولا يجدن ذواقاً فيها يتقوتنه إلا التمر والماء .

أما الموقف فقد اختلف الآن ، فلا ضير أن تطالب أمهات المؤمنين ببحبوحة من العيش ولو بالقدر القليل ، « فنساء النبي ﷺ كن نساء من البشر لهن مشاعر البشر ، وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة حية في نفوسهم ، فلما أن رأين السعة والرخاء بعد ما أفاء الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي ﷺ في أمر النفقة فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، بل استقبلها بالأسى وعدم الرضا إذ كانت نفسه ﷺ ترغب أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى متجردة

---

(١) مسلم برقم (١٤٧٨) .

من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوباشها ، لا بوصفه حلال وحرام فقد تبين الحلال والحرام ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة [١] .

ورغم ما ترك هذا المطلب في نفس رسول الله ﷺ من المرارة والألم وما ترك في نفسه الشريفة من الموجدة على زوجاته الفضليات إلا أنه لم يؤذيهن ولم يعنفهن ، بل لم « يقبل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة ، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تصفى وترفع ولكنها لا تخمد ولا تكبت » [٢] ، لهذا قد لملم رسول الله ﷺ جرحاته وطوى أساه واختلى بنفسه شهراً بعيداً عن الأهل والصحب والأزواج ، حتى تهدأ نفسه ، ويندمل جرحه ، فلا تؤذيهن شدة غضبه ، ولا تكسرهن حدة ثورته ، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا عن فترة الاعتزال هذه فيقول :

« فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير ، فجلست فأدنى عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فنظرت ببصري في خزانه رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة ، وإذا أفيق معلق قال : فابتدرت عيناي قال : « ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ ، قالت : يا نبي الله ! وما لي لا أبكي ؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته ، وهذه خزانتك فقال : « **يابن الخطاب ! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟** ، قلت : بلا » [٣] .

---

(١) في ظلال القرآن .
(٢) في ظلال القرآن .
(٣) من حديث الإيلاء ، صحيح مسلم والبخاري ، باب (يا أيها النبي لِمَ تحرم ما أحل الله لك) ، كتاب تفسير القرآن واللفظ لمسلم .

المسألة إذاً هي إيثار الآخرة ونعيمها ونعيم الدنيا بجانبه إنما هو متعة ساعة تفنى وتبقى تبعتها ، كان اعتزال رسول الله ﷺ لنسائه درساً قاسياً على نفوسهن وعقاباً رادعاً لثورتهن ، إذ فى بعده عنهن عذاب أى عذاب ، ولغضبته فى نفوسهن مرارة أى مرارة ، لكنه عقاب مهذب لا يخدش الكرامة الإنسانية ولا يهين الطبيعة البشرية ، وتنتهى فترة الإعتزال ويعود رسول الله ﷺ إلى أبياته الشريفة .

لكن القضية لم تنته بعد إذ لا يرضى الله عز وجل لرسوله ﷺ أن يمضى الأمر هكذا ولا أن يتعرض نبيه الكريم لهذا الموقف مرة أخرى فينزل الله تبارك وتعالى آية التخيير لتضع حداً حاسماً لتلك القضية .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الأحزاب ٢٨-٢٩] .

أى جريمة اقترفتها الأمهات القانتات العابدات فاغضبت عليهن رسول الله ﷺ تلك الغضبة الشديدة وأغضبت الله تبارك وتعالى لغضبة نبيه ؟ ألأجل طلبهن أن يوسع عليهم رسول الله ﷺ بعض الشيء فى النفقة وهو الذى يعطى الناس عطاء من لا يخشى الفقر ؟ .

أذلك مطلب جائر وقد عشن من قبل سنوات وسنوات دون حد الكفاف راضيات محتسبات وقت كان رسول الله ﷺ لا يقدر على غير هذا ؟ ، إن هذا مطلب طبيعى وعادل لزوجات صبرن على ضيق ذات يد أزواجهن حتى فتح الله عليهم ووسع أرزاقهم .

نعم هو هكذا بالنسبة لأى زوجات ، أما زوجات رسول الله ﷺ

فالأمر مختلف إذ تسير القضية على قاعدة حسنات الأبرار سيئات المقربيين ، ذلك أنهن « أمهات المؤمنين ولهذه الأمومة تكاليفها ، وللمرتبة السامية التى استحققن بها هذه الصفة تكاليفها ، ولمكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها » [(١)] .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾[الأحزاب ٣٢-٣٣] .

ولهذا جر هذا المطلب البسيط المتاح كل هذا البلاء عليهن ووجدن أنفسهم فى مفترق صعب واختيار حتمى بين نعيم الدنيا وبين نعيم القرب من الله ورسوله ﷺ .

ويبدأ رسول الله ﷺ بعائشة رضى الله عنها وتلك فطنة النبوة وإشراقة القلب المحب ، ويخيرها بمنتهى الحرية بلا ضغوط ولا قهر ولا إرهاب ، إنها حرية الاختيار بين المتعة والسراح الجميل فى أدنى الخيارين وعظيم الأجر وجزيل المثوبة فى أعلاهما ، إنه القرآن الكريم خلق سيد المرسلين .

إنه الحلم الرائع فى أحرج المواقف وأقساها على قلبه ﷺ ويستمهل رسول الله ﷺ عائشة رضى الله عنها فى الجواب حتى تستأمر أبويها ليقينه أنهما لن يؤثرا على رسول الله الدنيا وإن حيزت لعائشة من أطرافها وذلك حرصاً من رسول الله ﷺ على عائشة وضنا بها على غير المكانة الأسمى .

---

(١) فى ظلال القرآن .

وتختار عائشة رضا الله عنها بحصافتها وتقاها وحبها لله ولرسوله خير الخيارين تختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم تلمح عائشة فى أفق الموقف أمل الإنفراد برسول الله ﷺ فتسأله بقلب الزوجة المحبه الغيور الضنينه بزوجها على امرأة غيرها ألا يخبر أحداً من زوجاته باختيارها علهن ألا يوفقن فى الإختيار فيلخص لها رسول الله ﷺ وحدها ، لكن الرحمة المهداة والسراج المنير ﷺ يبين لها أن القضية أبعد من غيرة امرأة أو أثرتها إنما هو خيار دنيوى يتوقف عليه مستقبلهن الآخروى .

« فبدأ بعائشة فقال : يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وما هو يارسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ ، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت : قال : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى ميسراً » [(١)] .

يال الأخلاق المحمدية الراقية ، يخبرهن – إن سألنه – باختيار عائشة لعلهن يتأسين بها ، ولهن بعد ذلك حرية الاختيار المطلق ، يالرحمة الزوج إذ يعين زوجه على حسن الاختيار .

وما كان لأمهات المؤنين اللاتى تربين فى بيت النبوة ، واغترفن من أخلاق النبوة ، وأحببن رسول الله ﷺ حباً دونه كل حب أن تخترن غير الله ورسوله فارتقين المرتقى الذى أراده لهن الله ورسله ، كل ذلك برحمة الله تبارك وتعالى بهن ، وحلم رسول الله ﷺ عليهن .

إن لله عباداً فُطُنا طلقوا ... الدنيا وخافو الفتنا

---

(١) حديث الإيلاء ، مسلم برقم (١٤٧٨)

المبحث الثالث
[فأمر أبا أسيد أن يجهزها]

كان هذا هو أرقى درجات الحب وأعلى درجات الحرص من رسول الله ﷺ على زوجاته الطاهرات رضى الله عنهن اللائى غمرهن بفيض رحمته ، وجميل عشرته ومودته واحترام مشاعرهن فحفظها عليهن شفيفة طاهرة ، بل عمل على رقتها وسموها فنقاها من كل شائبة ، وخلصها من كل أثرة ، وطوف بها فى عالم الإيثار النورانى السامى الذى لا يصله إلا من خلص قلبه ونفسه لله تعالى ، فكن نساءً فوق مراتب عظماء الرجال .

وها هو ﷺ يتزوج بأخرى ليحلق بها فى سماء مجد بيْت النبوة حيث يرفعها إلى مرتقى لا يصله إلا الخيرات المختارات غير أن ما حدث كان أبعد من استيعاب العقل وأغرب من شطحات كل خيال .

« أبو أسيد قال : تزوج النبى ﷺ أميمة بنت شراحيل فلما دخلت عليه بسط يده إليها فكأنما كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين » (١) .

امرأة نكدة غير موفقه ، أراد رسول الله ﷺ أن يسمو بها إلى أرقى مرتقى ، لكنها أخلدت إلى الأرض واتبعت هوى طينيتها المظلمة الثقيلة ، فلم تستجب لنور النبوة الفياض ، إذْ أراد لها التحرر من قيود الأرض وانحطاط الطين إلى آفاق الروح الرحب ، فى مقام يجاور مقام النبوة السامى يتزوجها رسول الله ﷺ لا لتصبح ملكة تاجها اللؤلؤ وعرشها الياقوت وملكها أرض شاسعة فى عصر

(١) صحيح البخارى ، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ، كتاب الطلاق .

مديد – وهذا والله وإن كثر فى عيون الخلق فهو عرض من الدنيا قليل قليل – وإنما لتكون أماً للمؤمنين ، تاجها اقترانها برسول الله ﷺ وعرشها قلوب المؤمنين الصادقين وملكها حيث طلعت الشمس أو غربت إلى يوم الدين ، ثم الكرامة العظمى مرافقته ﷺ فى الجنة ، فى أرفع المقامات وأعلى الدرجات حيث الخلود والنعيم المقيم ، إذ أزواجه فى الدنيا هن أزواجه ﷺ فى الآخرة ، لكنها استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير ، إذ بسط إليها رسول الله ﷺ – حين دخلت عليه – يده المباركة بكل خير ، بسعادة الدنيا والآخرة ، بالسمو والرفعة والشرف والمكانة التى لا تتبوؤها امرأة إلا أن تكون زوجاً لأكرم خلق الله على الله ، لكنها كأنما كرهت ذلك ، إذ أبت عليها ظلمتها الكثيفة أن تشف وترتقى ، فازدادت التصاقاً بالأرض ، وازداد تشبثها بالطين ، فلما رأى منها رسول الله ﷺ ذلك ، وهو المتعفف السامى المترفع عن كل ما لا يليق بمقام النبوة الطاهر الكريم ، احترم رغبتها ولم يستعمل حقه الشرعى كزوج قوام تجب له الطاعة وحق الولاء .

ولم يثأر لكرامته كرجل تترفع عليه من هى فى مقام دون مقامه بما لا يحصى من الدرجات ، وإنما تركها لاختيارها بشموخ الأبى الأنف ، فسرحها رسول الله ﷺ سراحاً جميلاً ، وأمر أبا أُسيد رضي الله عنه – بأخلاق النبوة الراقية – أن يجهزها كى ترحل إلى أهلها ، وأن يكسوها ثوبين رازقين .

أى حلم هذا ؟، وأية أخلاق تلك التى تهدى الورد إلى من يرميها بالشوك وأن تمتد بالفضل والخير إلى اليد التى حملت إليها الإساءة الغاشمة ؟ .

إنها أخلاق النبوة العطرة ، أخلاق محمد رسول الله ﷺ .

الفصل الرابع
حلمه ﷺ على الأطفال

المبحث الأول : أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة .

المبحث الثاني : فما زالت تلك طعمتي بعد .

المبحث الثالث : فذهبت ألعب بخاتم النبوة .

المبحث الأول

[أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة]

ما أرق النبتة الوليدة ، يلثم خدها النسيم الحالم ، وتلاعبها الفراشات اللعوب ، ما أروع براءتها ، وهى لاهية ضاحكة ملئ فم الصباح الآمل ، النافض عن عينيه ثقلة النوم وتثاؤب الأهداب .

ما ألذ ضعفها ، حين تختبئ تحت جناح الشجر اليافع من قسوة الهجير أو لطمة الريح العاتية ، ما أجمل طموحها ، وهى تجاهد ضعفها لتطاول باسقات النخل وهى القريبة العهد برحم الأرض ، ومشيمة الأقدار .

إنها الطفولة الرائعة المعنى ، الرائقة السطح ، الشفيفة الأعماق ، المتسلطة الرغبة ، القريبة الرضا والثورة ، المتقلبه فى دفء الحنان وانطلاقه المرح ، وعصف الغضب ، وتدليل الترضى .

المستسلمة أخيراً لهدأة النوم ، واستعداداً ليوم جديد حافل بالحياة ، ووسط تلك السلاسة الرائعة ، قد يطرأ على العود الغض الندى بعض ما يعرقل استقامته ، فلربما استقطبته الشمس فانحنى شرقاً ، أو صارعته الريح فانحنى غرباً ، وهنا وجب الحسم والتقويم ، حتى لا تُغتال البراءة فى مهدها ، ولا يُشوه الجمال فى أوج صفائه .

وينفع الأدب الأحداث فى صغر وليس ينفع عند الشيبة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

لابد إذا من الحزم الواعى المقنن والتقويم الرفيق الحانى ، ذلك أن التغاضى الدائم عن الإعوجاج يميع القضايا ويفقد الناشيء الإحساس بالقيم فلا يجد ضرورة لرقى السلوك .

وتسويف التقويم يجعله بعد مستحيلاً ، ليُبس العود وتأصيل الإعوجاج فيه أما التقوم العنيف فربما يكسر العود الغض ، أو يكسبه إعوجاجاً أشد فى الاتجاه المغاير ، وفى كلٍ فساد الطبع وتشويه المطبوع ، لهذا فالتقويم المتواصل المقترن بالرفق والوعى ، يصلح بلا شك الإعوجاج الطارئ ويدعم الاستقامة فينضج العود وتطيب الثمرة ، ذلك ما أرساه رسول الله ﷺ فى تربية النشأ ، وما تتطلبه من مرونه تناسب أطوار حياتهم المختلفة ومشاكلهم المتجددة المتباينة وما يلزمها من حزم رفيق وحلم ذكى ، لتصحيح ما يطرأ على السلوك من خطأ وما يطرأ على التفكير من انحراف أو ما ينتج عن قلة العلم أو عدم تقدير العواقب ، ابن زياد سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : أخذ الحسين بن عليّ تمرة من تمر الصدقة فجعلها فى فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « **كخ كخ ليطرحها ، أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة** »[(١)] .

الصدقة قد حرمت على رسول الله ﷺ وأهل بيته الطيبين الأطهار إعظاماً وتكريماً لهم ذلك أن الصدقة طهور لمال المتصدق ، تغسل ما يعلق بماله من أدران الشبهة وتطهرها مما قد يختلط به من مال حرام ، لهذا فقد رفع الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم فوق تلك الصدقة هو وأهل بيته الطيبين ، الحسن رضي الله عنه كان بعد طفل صغير لا يدرك من تلك المعانى شيئاً ، إنما وجد تمرة ، فاشتهتها نفسه الصافية البريئة ، وامتدت يده الصغيرة الرقيقة لتلبى نداء نفسه .

طفل صغير لايدرك معنى الحلال والحرام ، ولا يدرى كنه الصدقه ، ولم يصل بعد سن التكليف .

وكثيراً ما يتجاوز البعض منا فى قضية الحرام والحلال بالنسبة للأطفال

---

(١) البخارى ومسلم واللفظ للبخارى ، باب ما يذكر فى الصدقة للنبى ﷺ .

بحجة أن الطفل بعد لم يصل سن التكليف فلا مانع من كذبة ترفع عنه حرج موقف ما ، ولا مانع من اغتصاب لعبة طفل آخر لإشباع رغبته ، ولا مانع من لطمة عنيده على وجه الأب أو الأم من يده الصغيرة ، لتهدأ ثائرته ومثل ذلك كثيراً مما لا يحسب البعض عواقبه ، تهاوناً وظناً أن لا ضير من ورائه بيد أنه يخطف خطوط رئيسية فى شخصية الطفل ونفسيته ، ويشوه مفهوم القيم والأخلاق لديه .

لم يتهاون رسول الله ﷺ ، ولم يشفق على الطفل – وهو لم يدخل بعد دائرة التكليف – أن اشتهت نفسه تلك الثمرة ، بل الشفقة كل الشفقة أن يحافظ الرسول الكريم ، على تلك النبته الغضة ، طاهرة نقية ، لهذا فقد أسرع ﷺ بنهى الطفل نهياً حاسماً ، لكن بلغة طفولية رفيقة حانية ، بعيداً عن التشنج والعصبية والقسوة « كخ كخ ، ارم بها » منهج رائع لتقويم الإعوجاج فى سلوك الأطفال وتصحيح الخطأ فى تصرفاتهم .

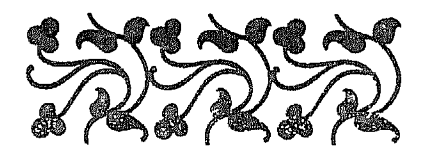
ولم يقف رسول الله ﷺ عند حد النهى عن الخطأ ، إنما احترام عقلية الطفل فناقشه أسباب النهى .

أما علمت أن لا نأكل الصدقة ؟ ، مناقشة هادئة مقنعة فى حوار دافئ يعترف بإنسانية الطفل ويحترم حقه فى المعرفة وضرورة الإقناع .

إن فقد الحوار بين الآباء والأبناء لهو من أسباب الشقاق والعقوق ذلك أن الأب يرى دائماً أوامره بدهيات يجب التسليم بها من قبل الأبناء ، بيد أن الابن يحس أنه له حق المناقشة والحوار ، وله عقل من حقه القبول أو الرفض .

وبين تعنت الآباء وإصرار الأبناء – كلٌ على موقفه – تنشأ الفجوة ، ثم تتسع الهوة شيئاً فشيئاً ، ويحدث ما يسمى بصراع الأجيال ، وهو فى الحقيقة ليس بسبب اختلاف الأجيال ، إنما هو فقد الحوار وعدم التواصل الفكرى ،

وعـدم الإئتـلاف الروحى من بداية التنشـئـة ، هكذا تعـامل رسـول الله ﷺ مع الموقف ، وهكذا أنشأ حواراً علمياً وجدانياً بينه وبين الطفل ، علمه من خلاله أن هناك محظورات يجب الوقوف عندها ، وليدربه على إعمال العقل ، وينشئه على احترام الذات والرجوله المبكرة .



المبحث الثانى
فما زالت تلك طعمتى بعد

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجاً ولكن يعوده التدين أقربوه

أيمكن لطفل تمتهن مشاعره وتهمل ذاتيته وتحتقر إنسانيته أن يكلف بعد بمهام الرجال ؟ ، كيف ؟ وطفل اليوم هو صبى الغد ورجل بعد غدٍ .

إنها الحقائق التربوية التى يجهلها البعض ، ويتجاهلها البعض ويكسل عنها كثير ممن يؤمنون بها إيمان نظرية لا إيمان تطبيق .

أما رسول الله ﷺ فما كان منهجه المبارك قابل للإنقسام بين نظرية وتطبيق إنما كان المنهج الواقعى التربوى الأسمى فى واقعيته من المثال ، والصورة التى بين أيدينا الآن ملمح رائع من حرص رسول الله ﷺ على الأطفال والرقى بهم وتهذيب سلوكهم فى حنو بالغ وحلم واسع .

« عمر بن أبى سلمة يقول : كنت غلاماً فى حجر رسول الله ﷺ وكانت يدى تطيش فى الصحفة فقال لى رسول الله ﷺ : « **يا غلام ، سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى بعد** » (١) .

أبو سلمة رضي الله عنه هو من لا يخفى على مسلم سبقه فى الإسلام ، وهجرته فرارا بدينه ، ومكابدته فراق الزوج والولد ، حتى جمع الله بينهم ، صحابى جليل يقدم نفسه طيبة راضية فداء للإسلام ، ونصرة للدين وتعلم أم سلمة رضى الله عنها باستشهاد زوجها الحبيب ، فتصبر وتحتسب ، ويلهج قلبها

---

(١) صحيح البخارى ، باب الأكل مما يليه ، كتاب الأطعمه .

ولسانها بدعاء المصيبة ، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ .

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها .** قالت : لما مات أبو سلمة قالت : أى المسلمين خير من أبى سلمة ؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ » (1) .

امتثلت أم سلمة رضى الله عنها لأمر الله ورسوله ولم يدر بخلدها أن رحمة الله تبارك وتعالى قد اختارت لها أفضل خلق الله قاطبة خلفاً لأبى سلمة على الأهل والولد ، ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء : ٦٩] ، إنه رسول الله ﷺ إنه الرحمة المهداة والنور الهادى والخلق العظيم ، وارتقى رسول الله ﷺ بأم سلمة رضى الله عنها من مؤمنة فى عداد المؤمنين إلى أم للمؤمنين ، وهكذا أصبح عمر الطفل الصغير اليتيم الكسير وقد أسعدته الأقدار فآوته إلى حجر رسول الله ﷺ ليدفئة من صقيع اليتم ويحميه من ذلّ الحاجة وشبح الضياع .

ما أسعدك يا ابن أبى سلمة بيتمك ، وما أوفر نصيبك من الخير ، فلم يكن طفل يتمه خير وبركة عليه كما كان عليك ، حجر رسول الله ﷺ وما أدفأه من حجر ، وحضن رسول الله ﷺ وما أحنه من حضن ، ورعاية رسول الله وما أرشدها من رعاية .

وها هو الطفل الذى أدركته عناية الله تبارك وتعالى ، يصبح ربيب البيت

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة .

المحمدى ، يستنشق عبير الأخلاق المحمديه ، ويرتوى سلسبيل الآداب المحمدية ، ويغتذى ببركة المائدة المحمدية .

ها هو يجلس على المائدة فى جو أسرى رائع ، يغتذى جسمه بأكثر الطعام يسراً وبركة ، وتغتذى رورحه بفيض الإيمان وأصدقه ، وتغتذى مشاعره بأروع الحنان وأدفأه ، ويغتذى عقله بأجل العلم وأقدسه وتغتذى أخلاقه بآداب من أدبه ربه فأحسن أدبه ﷺ .

الطفل يأكل بطريقته الطفولية العشوائية ، تمتد يده حيث شاءت وتنتزع من الصحفة ما أرادت ، وتغدوا فى الطعام بلا انضباط وتروح وتطيش حيث لا عقل يقودها ، ولا أدب يكفها ، وهنا يتدخل الأب الحانى ، والمعلم الفياض ، المؤدب المهذب ، يا غلام ، يا صغيرى الذى عما قريب تطرق أبواب الرجولة لتنتظم فى منظومة المجتمع الرفيع الأدب الراقى السلوك .

فكما أن لكل شيء فى الإسلام آداب وأخلاق ، كذلك الطعام وأول آداب الطعام أن تسم الله الرزاق الوهاب ، شاكراً لنعمته واجتلاباً لبركته ، ثم تأكل بيمينك لتحقق خصوصية المسلم ويزداد الطعام يمناً وبركه ثم تأكل مما يليك لتزداد عفة وقناعة وترفعاً .

ما أروع الأداب المحمدية الراقية ، وما أرفع نفساً تربت عليها وتهذبت بها ، ويشب الطفل المحاط بالعناية الإلهية والتربية النبوية رجلاً تقى القلب ، عفيف النفس ، مهذب السلوك ، يروى عن رسول الله ﷺ أدبه الرفيع ، وحلمه الرائع ، وحنانه الفياض ، ليعلم الآباء معنى الأبوة الحقه ، ويعلم من يخلف الآباء الراحلين على أبنائهم كيف تكون الرأفة والرحمة ، وكيف تكون تقوى الله تبارك وتعالى فيمن استخلفوا عليهم ، وصلى الله وسلم وبارك على معلم البشرية الخير إلى يوم الدين .

المبحث الثالث
[فذهبت ألعب بخاتم النبوة]

كان رسول الله ﷺ ليتيم حجره خير أب وخير مهذِّب ، وخير مشيد لمعالى النفس ورفعة السلوك ، فى حنو فياض وعطف عاقل وحلم رائع ، كذلك كان رسول الله ﷺ لكل أطفال المسلمين وذلك إرساءً لقواعد التربية السليمة وترجمة لروح الشرع الحنيف .

« عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت : أتيت رسول الله ﷺ مع أبى وعليّ قميص أصفر ، قال رسول الله ﷺ : سنه سنه ، قال عبد الله (أحد رواة الحديث)وهي بالحبشة حسنه ، قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزبرنى أبى ، **قال رسول الله ﷺ : دعها ، ثم قال رسول الله ﷺ أبلى واخلفى ثم أبلى واخلفى ثم أبلى واخلف »** [(١)] .

يا لروعة العقل الذى يحترم حب الإستطلاع لدى الأطفال ويعمل على تنمية ملكة البحث عن الحقائق ومحاولة تفسير الظواهر المختلفة .

يا لروعة الأبوة الحانية التى تحتضن الطفولة بالحب الفياض وتبذل لها بالإيثار الحبيب وتسعها بالحلم الواسع ، وتتعهدها بالرعاية الأمينة ، الأبوة الصادقة ، كما عبر عنها ذلك الأب الحانى الرقيق الذى انقلبت سعادته بأبنائه ألماً ومرارة لفراقهم فتساءل قائلاً :

أين الضجيج العذب والشغب — أين التدارس شابه اللعب
أين الطفولة فى توقدها — أين الدمى فى الأرض والكتب

---

(١) صحيح البخارى ، باب من تكلم بالفارسية أو الرطانة ، كتاب الجهاد والسير .

أين التشاكس دونما غرض أين التشاكى ما له سبب
أين التباكى والتضاحك فى وقت معاً والحزن والطرب
أين التسابق فى مجاورتى شغفا إذا أكلوا وإن شربوا
يتزاحمون على مجالستى والقرب منى حيثما انقلبوا [(١)]

هذه هى الأبوة الحقه التى هى حق خالص للطفولة وأى تقصير فيها يعتبر تعدياً على حقوق الأبناء ، وأى تجاهل أو إنكار لها يعتبر جريمة بشعة ليس فى حق الأطفال فحسب ، وإنما فى حق المجتمع الذى سيعانى من جيل من المشوهين نفسياً وخلقياهم ضحايا إساءة الآباء أو تخليهم .

لذا كان لابد للأبوة من وعى كامل بطبيعة البنوة ومقتضياتها والداعية المربى الذى يربى المجتمع ويتعهد عقائده وسلوكياته أب على وجه الحقيقة - وإن لم يكن بالنسب - لكل فرد فى المجتمع ، والطفل أولى بتلك الأبوة إذ هو أرض خصيبة تجيد إنبات كل ما يلقى فيها من خير أو شر .

« ومن القواعد التربوية المجمع عليها لدى علماء الإجتماع والنفس والتربية تقوية الصلة ما بين المربى والولد ليتم التفاعل التربوى على أحسن وجه ويكتمل التكوين العملى والنفس والخلقى على أنبل معنى ، ومن المؤكد لدى أصحاب العقول النيرة أنه إذا كان ثمة جفوة ما بين الولد والمربى أو ما بين الطالب والأستاذ فلا يمكن أن يتم تعليم أو تتحقق تربية ، لذا وجب على الآباء والمربين أن يبحثوا عن الوسائل الإيجابية فى تحبيب الأولاد بهم ، وتقوية الصلة بينهم وإيجاد التعاون معهم ، واستشعار الشفقة عليهم » [(٢)] .

---

(١) عمر بهاء الأميرى عن كتاب ، تربية الأولاد فى الإسلام .
(٢) تربية الأولاد فى الإسلام .

وهذه الوسائل التى أجهد الباحثون أنفسهم على مر العصور وفى مختلف الحضارات فى التوصل إلى بعضها ماهى إلا بعض من منهج كامل للتربية ، أرسى قواعدة رسول الله ﷺ وكان أحد مفرداته هذا الحلم الرائع الذى احتضن به أطفال الأمة جميعاً من خلال احتضانه لأطفال صحابته الكرام رضى الله عنهم .

وهاهى أم خالد بنت خالد طفلة صغيرة كانت لها السعادة كل السعادة أن تترعرع فى بستان رسول الله ﷺ زهرة ندية رقيقة الجمال ، تأتى رسول الله ﷺ مع أبيها فيهش ويبش لها ويطرى على ثوبها ويجمله لها ويداعبها فى حنو عظيم ورقة بالغة تدخل السرور على القلب الأخضر الصغيرة ، ويزيد إرتباطه وحبه لمن يبذل له ذلك الحب الغامر .

ثم يحتمل عبثها الطفولى المستطلع فى خاتم النبوة – وربما آلمه ذلك – فى حلم رائع دونما تزمر أو عبس أو زجْر ، بل وينهى أباها عن زجرها أو تعنيفها ، ثم يلاطفها ويدعو لها بالبركة وطول الأجل .

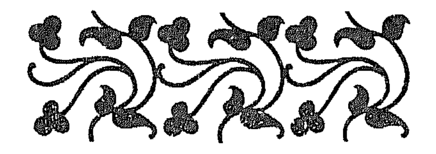
أى حلم هذا الذى وسع الكون كله بفيض صبره وإحسانه ؟ ، أى مربى هذا الذى يرتبط به أبناؤه إرتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه أبداً ؟ .

يقول الأستاذ / عبد الله النصالح علوان فى رائعته تربية الأولاد فى الإسلام « من الصفات الأساسية التى تساعد على إنجاح المربى فى مهمته التربوية ومسئوليته التكوينية والإصلاحية هى صفة الإتزان والحلم ، فبها ينجذب الولد نحو معلمه ، وبسببها يستجيب لأقوال مربية وبواسطتها يتحلى بالآداب المحمودة ويتحلى عن الأخلاق المرزولة ويكون كالملك يمشى على الأرض وكالدرر يظهر فى الناس » [1] .

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام .

وهذا هو الرعيل الأول رضوان الله عليهم الذين رباهم رسول الله ﷺ ، فكانوا هم خير البشر الذين تقتفي البشرية هدى خطاهم وتستضئ بإشراقات سناهم .



الفصل الخامس
[حلمه ﷺ على الخدم والعبيد]

المبحث الأول : فجاء بالماء فسقاها .

المبحث الثانى : يا أنيس اذهب حيث أمرتك .

المبحث الثالث : إحدى سوءاتك يا مقداد ! .

المبحث الأول
[فجاء بالماء فسقاها]

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ ﴾ [العلق : ٦ - ٨] .

ما أشد حمق الإنسان حين ينسلخ عن إنسانيته فيظن أنه غني بذاته ، قادر بملكاته ، مقدر لمصائر بعض من هم من دون جبروته من البشر ، متحكم فى أرزاقهم بل أحياناً وفى نبض قلوبهم ؟! ، حينها يصبح الإنسان بشعاً قد جاوز فى بشاعته كل حد حتى طغى وبغى فظلم وقهر وتألـه واستبد .

وما أشد حمق الإنسان حين ينسلخ عن إنسانيته فيظن ألا غناء له إلا بالمذلة للآخرين ، ولا توجُّه له إلا أن يوجهه الآخرون ، ولا حياة له إلا تحت سطوة الآخرين .

حينها يصبح الإنسان بشعاً قد تدنى فى بشاعته إلى أدنى حد حتى ذل وضل ، واستُبعد لكل من نصب نفسه إله ، وهنا يستشرى الظلم والقهر وتتسع الهوة بين بنى الإنسان والتاريخ الإنسانى ينزف مرارة وأسى ويئن تحت وطأة ظلم البشر ما بين متأله ومستعبد ، وقاهر ومقهور ، ما بين سادة ظنوا طينتهم فوق طينة البشر ، وعبيد أُوهموا أن طينتهم دون طينة الحجر ، فكان الرق والاستعباد الذى انتشر فى أمم الأرض ، « ولم تختلف معاملة الرقيق عند تلك الأمم كبير اختلاف إذا نحن إستثنينا أمة الإسلام ، فقد كان الرقيق عند تلك الأمم لا يعدو أن يكون آله مسخرة تستخدم فى كل شىء وتستعمل فى كل الأغراض ، زيادة على كونه يجوع ويضرب ، ويحمل ما لا يطيق بلا سبب ، كما قد يكوى بالنار وتقطع أطرافه لأتفه الأسباب ، وكانوا يسمونه الآله ذات الروح ، والمتاع

القائم به الحياة » [١] .

وهنا كان لابد من منهج ربانى يضع الموازين فى نصابها الصحيح ، ويوقف الظالم على حقيقة ضعفه وخذلان مشيئته ، ويوقف المظلوم على حقيقة إنسانيته ويعمل على إحياء كرامته ويبقى حق الإلهية لله الخالق سبحانه وتعالى إذ منه البدء وإليه المرجع والمنتهى ، وكان المنهج هو الإسلام الحنيف بسماحته ونصفته وعدله ، وكان رسول الله ﷺ هو حياة هذا المنهج الفاعلة الصادقة برأفته ورحمته وسعة حلمه .

وقد تنسمنا من قبل نسائم رحمته المباركة بتلك الفئة البائسة من الخدم والعبيد ، وكيف كان تواضعه لهم ، وشفقته عليهم وإحسانه إليهم فكان مفزعهم ومأواهم وكان أنفاسهم الطليقة من سجن سحيق ونبضهم الذى طالما اختنق تحت وطأة الذل والمهانة صلى الله عليك وسلم ، يا من :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنساناً تخير ملة   ما اختار إلا دينك الفقراء [٢]

لم يألو جهداً فى عتق إنسانيتهم ، وعتق مشاعرهم ، وعتق كرامتهم ، وعتق رقابهم ، وها هو ﷺ يسعهم بحلمه ويشملهم بعفوه تضميداً لجراحاتهم ، وتأكيد لإنسانيتهم ، وجبراً لخاطرهم الكسير .

« قال الواقدى عن أصحابه المدنيين قالوا : نظرت أم أيمن إلى النبى ﷺ وهو يشرب فقالت : اسقنى ، فقالت عائشة : أتقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ فقالت : ما خدمته أطول ، فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، فجاء

---

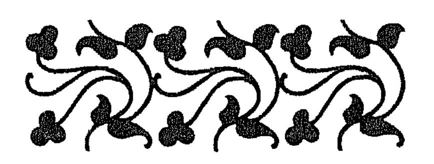
(١) منهاج المسلم .
(٢) ديوان شوقى .

بالماء فسقاها رسول الله ﷺ » [(١)] .

إنه التحول الهائل الذى أزال القبح عن وجه الحياة ، واستبدل بالكفر إيماناً ويقيناً واستبدل بالشرك توحيداً وإخلاصاً ، وبالسفاهة عقلاً وحكمة ، وبالضلالة هدىً ونور ، فأحال المذلة عزة وإباء ، وإذ بالأَمَةِ تستسقى سيدها ، بل وتعتبره حقاً لها تدافع عنه بالحجة والبرهان .

تتعجب عائشة رضى الله عنها لجرأة أم أيمن على رسول الله ﷺ ، لكن أم أيمن رضى الله عنها تدافع عن حقها من رسول الله ﷺ بقوة المؤمن الذى عز بإيمانه ، ودلال من ينعم بحلم سيده وإحسانه « ما الضير أن يخدمنى رسول الله ﷺ بحق خدمتى له العمر ؟ » ، ويحتوى رسول الله ﷺ مشاعرها بسعة حلمه ، وجميل صبره وفيض رحمته وجم تواضعه ، فيصدق قولها ، ويروى عطشها بعذب مائة ، ويروى قلبها بفيْض رحمته ، ويروى دلالها بعذب حلمه وجميل إحسانه .

صلى عليك الله ما صحب الدّجى ... حـــاد وحنت بالفـــلا وجناء
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم ... بجنان عدن آلك السُّمحاء [(٢)]



(١) البداية والنهاية .
(٢) ديوان شوقى .

المبحث الثانى
[يا أنيس اذهب حيث أمرتك]

لك الله أيتها القابعة فى حضن الجزيرة هدّتك العداوات وانهكتك الثارات لك الله أيتها السادرة فى غيها وعين الله ترقب بقايا الخير فيها وتعد لها المجد والخلود .

وها قد إغتنمت يثرب المنهكة غفوة فى جفن الزمن لتعاود بعدها الكر وتواصل الملحمة ، لكنها لم تك تدرى أن إغفاءتها إغفاءة يقظة لا حقد بعدها ولا عداوات لم تك تدرى أن عناية الله تلحظها بفيض من الرحمة والكرامة ، وأن الريح الآتية من مكة تحمل معها رائعة الدهر وخبيئة الأقدار من كل رائع وحبيب فقد طربت آذانها لنشيد التوحيد المنطلق فى مكة - تطارده نعرات الجهل وتجثم عليه جدران الحقد وتجالده سفاهة العناد يطرب له قلبها ويترنم به لسانها ، فانطلق صداه روحاً شفيفاً تتعانق خلاله طينية الأرض بنور السماء ، وأصبحت المدينة المنورة الحضن الذى آوى الدعوة المباركة وأطبق عليها الجفن وأسكنها سؤدد الفؤاد .

واتّقدَ الشوق اليقظ فى القلوب المتعطشة للإرتواء بقرب الحبيب ﷺ وتتحقق الأمنية الغالية ، ويلتحم الكون فى عناق رائع سعيد ، الشمس تحتضن حرارة القلوب ، الريح تداعب النخيل والزهور ، الأرض تقفز لتعانق السحاب والنجوم ، الأيدى تتشابك ، القلوب تتوحد ، الحناجر تعزف لحن التكبير الخالد فى عرس المدينة الميمون ، فرحة بقدوم رسول الله ﷺ .

ويسارع الأنصار رضى الله عنهم لإتحاف رسول الله ﷺ بما تجود به قدراتهم إكراماً وترحيباً .

وتفتش أم سليم رضى الله عنها فى قلبها الفرح المحب على أروع هدية يمكن أن تقدمها لرسول الله ﷺ فلا تجد أغلى من أنس رضي الله عنه ، فلذة كبدها زهرة شبابها ، وربيع أيامها ، وأمل عمرها صبى يدق أبواب العاشرة أو يكاد ، لكنه فطن ذكى نجيب فتهديه رسول الله ليخدمه ، وإذ بسعادة دنياه وآخرته فى قربه من رسول الله ﷺ ، ويحيى أنس رضي الله عنه كريماً سعيداً فى بيت النوة الطاهر الكريم ، ينهل من فيض نوره ويرقى فى آفاق سموه ، وها هو رضي الله عنه يبثنا ملمحاً رائعاً من ملامح حياته الهانئة فى خدمة رسول الله ﷺ ، إذ يقول :

« كان رسول الله ﷺ : أحسن الناس خُلقاً ، فأرسلنى يوماً لحاجة فقلت : والله لا أذهب ، وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله ﷺ ، فخرجت حتى أُمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق ، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى ، فنظرت إليه وهو يضحك **فقال : يا أنيس ، إذهب حيث أمرتك ،** قال : قلت : نعم أنا ذاهب يارسول الله » [(١)] .

أشفقت أم سليم رضى الله عنها على وليدها ، ذلك اليتيم الذى لم تيتمه المنايا ولم يسلبه الموت حقاً من أبيه ، إنما هو الكفر والضلال والعناد ، إنما هو الأب الذى تخلى عن عقيدته ونكص على عقبيه ، ومن تخلى عن عقيدته فما سواها عليه أهون ، وإن كان الأهل والولد ، لكن القدر قد اختار ليتيم الضلال أب فوق كل الآباء ، وحمل له سعادة دونها كل سعادة .

ها هو يخدم فى بيت رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين ، فإذْ به فى حضن أب رحيم يحنو ويتلطف ويحلم ويفيض عليه من كل خير ويبعثه ﷺ يوماً لحاجة فيتمرد أنس رضي الله عنه .تمرد الولد المدلل قد آنس من أبيه الحانى أفق

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣١٠) .

رحب من الحلم والصفح ، ويحلم رسول الله ﷺ ويتلطف للصبى حتى يذهب لحاجته ، ويتباطأ أنس رضي الله عنه فى العودة حتى يخرج فى طلبه رسول الله ﷺ ليجده يلعب مع الصبيان ما قضى حاجته بعد ، فكيف كان رد فعل رسول الله ﷺ تجاهه ، يمسك الصبى برفق ، تزين وجهه المبارك بسمة مشرقة تدفع الخوف أن يقرب قلب الصبى ، ثم يدلله مرخما لاسمه زيادة للطمأنينة والحنو ، « يا أنيس ، اذهب حيث أمرتك » .

إنه القرآن الحى النابض ذلك الخلق الذى ترجم بصدق وأمانة روح الشرع الحنيف ترجمة عملية ، تكون هدى ونبراساً لكل مهتد مقتد ، وحجة دامغة على كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، حجة رادعة لكل مسيء لخدمه ممتهن لكرامتهم ، ذابح لمشاعرهم على أعتاب العوز وذل الحاجة .

منهج عملى مضىء ، يضع الإنسان حيث وضعه الله تبارك وتعالى أياً كانت طبيعة عمله ، أو مدى فقره أو غناه .

منهج يغرس الرحمة والإحسان فى قلوب الأغنياء ، ويَذُبّ الآهه والدمعة عن قلوب الفقراء ، ويشيع روح الأخوة والمحبة والتسامح فإذا المجتمع متكامل متحاب متواصل متراحم .

المبحث الثالث

[إحدي سوءاتك يا مقداد]

ما أروع الطيب المبارك يتألق سحر سناه مع الأيام ، وكلما تطيّب وتطبّب به الناس إذ إزداد بركة ونماء ، إنه خلق رسول الله ﷺ مفزع الخائفين ومقصد الضعفاء المعوزين ، زمزم العطاش وخبز الجياع ومرواً جواد يصدر عنه القلب الظامئ ريانا خصيباً .

وزهرتنا تلك المرة قد روى نداها عود المقداد بن الأسود رضي الله عنه وفاح شذاها يقص روائع الخلق النبيل ، والكرم العظيم ، والحلم الحانى ، فأرهف سمعك واستجمع قلبك – يرعاك الله – لنشيد النسيم يترنم به المقداد رضي الله عنه فيقول :

« أقبلت أنا وصاحبان لي وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فليس أحد منهم يقبلنا ، فأتينا النبى ﷺ فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنز فقال النبى ﷺ « احتلبوا هذا اللبن بيننا » قال : فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منا نصيبه ونرفع للنبى ﷺ نصيبه قال : فيجئ من الليل فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً ويسمع اليقظان ، قال : ثم يأتى المسجد فيصلى ثم يأتى شرابه فيشرب ، فأتانى الشيطان ذات ليلة وقد شربت نصيبى فقال : محمد يأتى الأنصار فيتحفونه ويصيب عندهم ما به حاجة إلى هذه الجرعة ، فأتيتها فشربتها ، فلما أن ولغت فى بطنى وعلمت أنه ليس إليها من سبيل قال : ندمنى الشيطان فقال : ويحك ! ما صنعت ؟ أشربت شراب محمد؟ فيجئ فلا يجده فيدعو عليك فتهلك ، فتذهب دنياك وآخرتك، وعليّ شمله إذا وضعتها على قدمى خرج رأسى وإذا وضعتها على رأس خرج قدماى ، وجعل لا يجيئنى النوم ، وأما صاحباى فناما ولم يصنعا ما صنعت ،

قال : فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم ثم أتى المسجد فصلى ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئاً فرفع رأسه إلى السماء فقلت : الأن يدعو على فأهلك . فقال :

« اللهم أطعم من أطعمنى واسق من أسقانى » ، قال : فعمدت إلى الشمله فشددتها عليّ وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذا هى حافلة وإذا هن حفل كلهن ، فعمدت إلى إناء لآل محمد ﷺ ماكانوا يطمعون أن يحلبوا فيه قال : فحلبت فيه حتى علته رغوة فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال : أشربتم شرابكم الليلة ؟ قال : قلت : يارسول الله ﷺ إشرب فشرب ثم ناولنى فقلت : يارسول الله إشرب ، فشرب ثم ناولنى فلما عرفت أن النبى ﷺ قد روى وأصبت دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض قال : فقال النبى ﷺ : « إحدى سوآتك يا مقداد » فقلت يارسول الله : كان من أمرى كذا وكذا وفعلت كذا ، فقال النبى ﷺ : « ما هذه إلا رحمة من الله ، ألا كنت آذنتنى فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها ؟ » قال : فقلت : والذى بعثك بالحق ما أبالى إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس » [1] .

أنوار يتعانق لآلاؤها ، ليبدع أبهى بستان لروعة الأخلاق ، محبة وحنان ، رحمة وإيثار ، جودو إحسان ، سمو وتواضع ، صبر وحلم ، ترفع وزهد ، قناعة ووقار ، وفاء وإخلاص ، وغيرها الكثير أخلاق راقية رائعة ، وأروع فيها أنها تعانقت فى قلب واحد هو قلب رسول الله ﷺ، ومن غيره قد حاز مجامع الخير .

وأكثر ما يستوقفنا فى ذلك البستان الخلقى البديع – وكله يستوجب وقفات ووقفات –سعة حلمه ﷺ لا للحلم فى حد ذاته ، فمنه ﷺ تدفق نبعه ،

(١) صحيح مسلم برقم (٢٠٥٥) .

وإليه منتهى قمته ، ولكن للحظة الجوع القاسية التى انبثق منها هذا الحلم الرائع .

ذلك أن الحلم يمكن أن يسع كل غضب ، إلا غضبة البطن حيث تشتد قسوة الجوع ، إذ لا يقتصر الألم على البطن وحدها ، إنما يعصف بالكيان كله ماديه ومعنويه ، فقديماً قالت الأعرابية الحكيمة لابنتها : « فإن تواتر الجوع ملهبه » .

وتلك الشربة من اللبن ربما كانت هى زواق رسول الله ﷺ فى يومه كله ، كان خليقاً بالمقداد رضي الله عنه وقد عضه الجوع وذهب بسمعه وبصره من ذى قبل وكاد يصعف به أن يقى منها رسول الله ﷺ الذى أنقذه من بين أنيابها ، لكنه الشيطان الرجيم . ذلك اللعين الذى يلبس الزور ثوب الحق ، ويغلف المعصية بأبهى الزينة ، ويبرر الخطأ دائماً ويقوى أعذاره ، حتى إذا كبا الإنسان ، واستمكن منه الخطأ إنهال عليه لوماً وتقريعاً فلا هو نجا من المعصية ، ولا هو سلم من اللوم والتقريع والندم .

ويأتى رسول الله ﷺ فتنساب نبراته الرقيقة الحنون سلاما دافئاً مهذباً ، يحتضن اليقظ ولا يقوظ النائم ، إنها عظمة الأخلاق المحمدية ، يأتى بعد عناء حركة نشطة دءوب ، قد لبى خلالها نداء ربه ، ونداء دعوته ونداء إنسانيته ، وقد آن له أن يلبى صرخات الطبيعة فى جسمه الجائع المتعب .

آن له أن يقتات ولو شربة من لبن تجمع عليه قواه التى أنهكها الجهد والجوع ، ويتوجه ﷺ إلى الإناء عله يصيب قوت ليلته ، وإذ به خاوٍ خواء معدته المستغيثه ، هل ضن عليه الإناء بجرعات من لبن يسد بها رمقه ؟ ، لا ليس الإناء – الذى ربما قد تألم لجوع رسول الله ﷺ إنما هو الشيطان الذى أغرى بها المقداد رضي الله عنه ، يرقب المقداد رضي الله عنه الموقف بأساً بالغ ، وفى خجل وندم

ووجل من سوء فعلته ، وإذ برسول الله ﷺ يترفع على الأسباب مستعيناً برب الأسباب ، ويرفع يدين ضارعتين ما خاب فى الله رجاؤهما قط .

وترتعد أوصال المقداد رضي الله عنه ، وتحتبس أنفاسه وتشتد أنات ضميره ، وتعض أنياب الندم على أنامل الألم فى قلبه المرتجف الوجل المرتقب لأخذة الله سبحانه وتعالى غضبة لنبيه ﷺ يالها من خسارة فادحه ، وتصارع أذناه كل أحاسيسة متسمعة لدعوة رسول الله ﷺ .

وإذ بدعوة رسول الله ﷺ ليست على من حرمة طعمته إنما لمن يرسله الله بطعام لنبيه ﷺ .

أى حلم هذا ؟! .

أية رحمة تلك ؟! .

أى خلق يكون ؟! .

لم يفزع خادمه ولم ينتهره ، لم يتهمه أو يحقق معه ، لم يَصُبّ غضبة جوعه عليه ، إنما توجه لمن ثقته فيما عنده آكد من ثقته لما فى بيته ، بل لما بين يديه ، ويفهم رسول الله ﷺ الموقف فيلاطف المقداد رضي الله عنه بدعابه لذيذه « بعض سوءاتك يا مقداد » ثم تسرد له الأحداث وليس ثمة إلا الرحمة والحلم والإيثار ، ليس ثمة إلا الخلق العظيم ، خلق القرآن الكريم .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء

لو لم تقم دينا لقامت وحدها ... دينا تضئ بنوره الآناء

زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء [٢]

---

(١) ديوان شوقى .

الفصل السادس
حلمه ﷺ على غير المسلمين

المبحث الأول : فقيل ألا نقتلها ؟ قال لا .
المبحث الثاني : إن الله يحب الرفق في الأمر كله .
المبحث الثالث: دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .
المبحث الرابع : ثم لم يعاقبه .
المبحث الخامس : اللهم اهد أم أبي هريرة .
المبحث السادس : اللهم اهد دوساً وائت بهم .
المبحث السابع : حلماء في مدرسة الرسول ﷺ .

المبحث الأول
فقيل ألا نقتلها ؟ قال : لا .

ما أقدم عداء القبح للجمال ، عداء الباطل للحق ، عداء الكفر والضلال والعناد للإسلام والمسلمين ، وقصة العداء الأسود قديمة قدم لحظة خلق آدم عليه السلام عداء حقد وحسد ، عداء حسرة وألم ، عداء كفر واستكبار عن الطاعة والاستسلام ، عداء ترصد ووسوسة ، فكانت المعصية الأولى التى زلزلت الإنسان عن عرش نعيمه وعزته ، وانزلقت به إلى أرض الشقاء والعناء ، وبدأ الصراع .

إنسان نبهته مصيبة المعصية الأُولى ، فظل يقظ الحياطة ، حذراً بقدر المستطاع من وبال المعصية ، فكان بمنجاة ، وآخر نسى أو تناسى ، وانتكس فكان مسرحاً مهيأً لألاعيب إبليس اللعين ، واستفحل الخطب فجنّد إبليس اللعين فريق البلهاء ليرمى بهم الصلحاء الأتقياء ، وانتصب فى ساحة المعركة ينفث ناراً لا تخبو أبداً ، ولا تهدأ قليلاً ، إنما هى مشتعله دائماً مضطرمة أبداً إضطرام الحقد والحسد والكراهية فى قلبه – لعنه الله – بل استنسخ له نظائر مكرورة فى كل زمان ومكان من أبالسة آدميين فاقوا أستاذهم فى الكفر والكيد والضلال .

وحمى الوطيس وتجالد الفريقان ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾ [الأعراف : ٣٠] ، بدأت المعركة بإبليس وحده عليه لعنة الله ، ثم قويت شوكته بجنده المخلصين من عهد قابيل إلى الدجال ، بل إلى قيام الساعة يتولون عدو الله ويصدون عن سبيل الله ويقفون للمؤمنين بكل سبيل يشككون فى الرسالات ، ويكذبون الأنبياء والمرسلين ويذبحون الطهر والكمال ﴿ يُرِيدُونَ أَن

يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة : ٣٢] .

استجلد إبليس وجمع الجمع وأعد العدة لأكبر معركة فصلت بين الحق والباطل ، بين النور والظلمات ، بين الهدى والضلال ، بين الكفر بملله ونحله متمثلاً في المشركين والكافرين في مكة ، واليهود والمنافقين في المدينة ومن سار على نهجهم ، وسمع بصمم آذانهم ، ورأى بظلمة عيونهم وبين الإيمان بصدقه ويقينه وتفرده متمثلاً في رسول الله ﷺ قائداً ومعلماً ، وكوكبة المؤمنين الصادقين جنداً أمناء طائعين ، وكما كان لمشركي مكة صولات وجولات على الإسلام والمسلمين ، كذلك كان لليهود والمنافقين ، ذلك أنهم جند إبليس العمى الطائعين ، وفدائيوه السذج المغررين كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه الحكيم .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وتلك العداوة السامة ليست عداوة عن جهل ، فالإنسان بالطبع عدو ما يجهله ، إنما هي عداوة حقد وموجده ، عداوة تكبر وغطرسة ، عداوة حسد وعناد ، عداوة من يعلم ويصرّ على جحود العلم والإنكار ، وهذا هو عزاء الله عز وجل لنبيه فيهم ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

كانت مصيبة المشركين عظيمة إذ جحدوا الرسالة وحاربوا الرسول ﷺ وصبروا على أوثانهم وضحوا من أجل سفههم بالنفس والنفيس أما مصيبة اليهود فكانت أدهى وأمر ، ذلك أن المشركين قد استيقنوا حقيقة الرسالة وصدق الرسول ﷺ بفطرتهم التعبدية ، واستدلالاتهم العقلية ، وملكاتهم اللغوية ، أما اليهود فكانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم ويعلمون أن رسالته

إنما أشرقت من نفس المشكاة التى أشرقت منها رسالة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

كانوا يعرفونه باسمه ورسمه وأخلاقه ومبادئه وصفاته المدونة فى التوراة ، ومع ذلك قد عرفوا وأنكروا ، وأيقنوا واستنكروا ، وأتاهم الهدى فضلوا واستكبروا ، بل كانوا سبباً رئيسياً فى ضلال المشركين ، إذْ استفتوهم فى أمر الدين الجديد بوصفهم أهل كتاب سماوى ولديهم أثارة من علم فخانوا أمانة العلم وكذّبوا المشركين فى الله ورسوله فضلوا وأضلوا وحسدوا وحقدوا وأخذوا ينفثون سمومهم كيداً للإسلام ولأمة الإسلام ولنبى الإسلام ﷺ .

وهاهى سمومهم الآثمة يشعلوها على رسول الله ﷺ غدراً إذ أمنهم وخيانة إذ أحسن الظن بهم ، وهل اليهود غير الكيد والغدر واللؤم والخديعة ؟! .

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجئ بها فقيل ألا تقتلها ؟ ، قال : لا فما زلت أعرفها فى لهواته »[1] .

وتفصيل القصة كما جاءت فى كتب السيرة أنه فى غزوة خيبر « أهدت زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود شاة إلى رسول الله ﷺ وقالت : أى عضو من الشاة أحب إليه ؟ ، فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، وجاءت بها فلمّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله ﷺ فلفظها وقال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ، قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت : إن كان ملكاً

---

(١) صحيح البخارى ، باب قبول الهدية من المشركين ، كتاب الهبة وفضلها .

استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته » .

إنها الفطر المنتكسة ، والطبائع المرزوله ، والنفوس الشائهة السقيمة ، إنه ديدن اليهود وهوايتهم الدنسة الشاذه ، قتل الأنبياء بغير الحق وها هو تاريخهم الأسود العفن مثقل بعارهم ا لأبدى الشنيع وها هو خنجرهم الخبيث المسموم تفوح منه رائحة الغدر والخيانة وتقطر منه دماء طاهرة بريئة ، كما تقطر منه دماء كثير من أكرم خلق الله على الله ، رسل كرام جاءوهم بالهدى والنور ، أتوهم بخلاص الروح والبدن ، فما كان جزاؤهم إلا إزهاق الروح وإتلاف البدن ، وهذه هى شهادة الله عليهم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾ [البقرة : ٨٧] .

إنه حجة السفهاء ومنطق البلهاء الذين لا تقوى نفوسهم على مواجهة الحق ولا تقوى قلوبهم على الاستبصار بنور الحقيقة ، إنما هو اغتيال النور وذبح الهدى ، وهاهم يلبسون لرسول الله ﷺ ثوب إبراهيم عليه السلام على قلب إبليس لعنه الله ، فيتحفونه بشاة حشوها زعاف حسدهم وأنضجوها بضرام أحقادهم ، وزينوها بلؤم قلوبهم ، وقدموها على مائدة غدرهم هدية مبغض خائن لناصح شفيق أمين ، هدية قاتل غادر لمنقذ مخلص كريم .

أى سفه هذا ، وأية بلاهة من قوم يعلمون أن محمداً ﷺ مرسل من عند الله ، بل يوقنون بشهادة توراتهم واعتراف علمائهم أنه نبى يأتيه وحى السماء فى ساعة من ليل أو نهار ، ثم يتوهمون أن مرسله تعالى خاذله ؟! ، إنها والله سفاهة ما بعدها سفاهة ، وهذه هى شهادتهم ساقها الحارث بن عوف فقال :

« ... والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، وإن يهوداً كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول : إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون إنه لمرسل ، ويهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذبحان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر ، قال الحارث : قلت لسلاَّم : يملك الأرض ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى »[1] .

هذه هى شهادتهم وذاك يقينهم ، ثم بعد هذا يسعون المرة تلو المرة ، ويتفتق بركان شرورهم عن الحيلة بعد الحيلة للقضاء على رسول الله ﷺ ، لكن هيهات هيهات مع حفظ الله ونصره .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة : ٦٧].

ولأن الله لا يخلف الميعاد فقد أخبر رسوله ﷺ بالمؤامرة الدنيئة والخيانة العظيمة ليقتل لذة الخيانة ، ونشوة النصرة فى القلوب الذئبية الوبيئة .

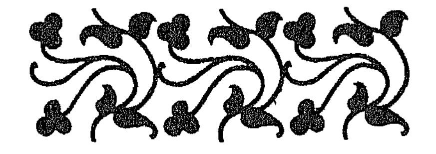
ويستدعى رسول الله ﷺ زينب بنت الحارث أداة الجريمة وأصابع التنفيذ فيها ، فتعترف لا لأنها صادقة ، إنما لعلمها أن إنكارها لا يصمد أمام وحى الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ، وتسوق المرأة مبررات تلك الجريمة التى لم تكن فردية ، إنما هى بلورة لفكر يهود ، وترجمة لحقد يهود ، وأصابع ليد يهود .

إن أدنى عقوبة لتلك الجريمة البشعة هى أن تأكل تلك المرأة هذه الشاة التى سمتها بيديها الآثمتين عن آخرها ليكون تدبيرها تدميرها فتكون عبرة لكل معتبر ، هذا إن لم يفتك بكل يهود جزاءً وفاقاً - والجزاء من جنس العمل - لكن رسول الله ﷺ يعفو ويصفح ويحسن ويتكرم ، إنه محمد رسول الله ، إنه

---

(١) البداية والنهاية .

الحلم الرائع فى مواجهة السفاهة والترفع الراقى فى مقابلة الدناءة وضوء الشمس يحاول تطهير الكهوف العفنة المظلمة ، وأياً كان مصير المرأة أأسلمت وحسن إسلامها ، أم قتلت فيما بعد قصاصاً ببشر بن البراء رضي الله عنه حين مات من أكلته - على اختلاف الخبر فى كتب السيرة - ففى النهاية قد تجاوز رسول الله ﷺ عن إساءتها وتنازل عن حق نفسه فى القصاص منها .



المبحث الثاني
[إن الله يحب الرفق في الأمر كله]

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت [(١)]

هذه هي قيمة السفهاء في كل زمان ومكان .

ومرة أخرى مع اليهود - لا جمعنا الله بهم أبداً - هؤلاء القردة والخنازير قرحة كل كبد مسلم ، وغصة كل خلق موحد ، وحزن كل قلب مؤمن صادق الإيمان ، وأرق كل عقل إنساني يحترم الإنسان ويعترف بحرمته ، اليهود هم العدو الحقيقي للإسلام والمسلمين لا لكونهم موسويين فموسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام لبنة مباركة في بناء الإسلام الحنيف ، الذي أتمّه الله عز وجل ، بمحمد ﷺ ، لا بوصفهم مخالفين لنا في الدين والعقيدة ، فإن الله عز جاهه وعلت كلمته قد حسم الأمر بداية بقوله الكريم .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

إنما لكونهم أعداء الرسل والرسالات ، غارسي كل قبح ورزيله ، حاصدي كل فضيلة وعفه ، مد مري كل جميل بناء ، اليهود هم سرطان الأمم وأمراض الشعوب، إنهم عار الإنسانية ووجع كل ضمير حي، وعداء اليهود للإسلام منذ اللحظة الأولى التي خرجت فيها النبوة عن بني إسرائيل حيث كانت انهياراً لزعمهم الفاسد أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المدلل المختار .

---

(١) عمر بن عليّ ، عن كتاب « أدب الدنيا والدين » .

ثم اضطرمت نيرانهم منذ أشرقت المدينة المنورة بنور ربها وشرفت بقدوم رسول الله ﷺ لها ، ولم يهدأ أوارها منذ اندلاعها حتى الآن ذلك أنهم رأوا فى رسول الله تقويضاً لسلطانهم على المدينة ورأوا فى الإسلام كساداً لتجارتهم باسم الدين ، ورأوا فى وعى المسلمين وحركتهم النشطه الدءوب تهديداً لهيمنتهم الاقتصادية على البلاد آه ، ما أقسى وجع الذاكرة المثقله بمآسى يهود حين تستعرض بعض تلك المآسى المروعة الرهيبة سيما حين تمس تلك المآسى المؤلة شخص رسول الله ﷺ إذ هو روح الإسلام الحية النابضة وقمته الشاهقة المثمرة ، وصورته الحقيقية الواضحة ، خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وها هى وخزة يهودية قاسية مريرة فى الوجدان الإسلامى المرهف الفياض .

عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : « دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قال عائشة : ففهمتها **فقلت : وعليكم واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فقلت : يارسول الله أولم تسمع ما قالوا ؟ ، قال رسول الله ﷺ قد قلت : وعليكم »** [(١)] .

أعيت اليهود إخفاقاتهم المستمرة فى القضاء على رسول الله ﷺ وخابت مساعيهم المستميته ، وأجهضت حيلهم الدنيئة حيلة إثر أختها وكل إخفاقه لكيدهم تزيد الحقد اشتعالاً ، وكل بطلان لسمومهم تزيد السم فتكاً وشراسة فيضطرم الحقد فى قلوبهم ناراً لا تخبو قليلاً ، ويسرى السم فى أفكارهم خدعاً رخيصة لا تهدأ أبداً ، ومع هذا فلم يجدوا مناصاً من التعامل مع رسول الله ﷺ كأمر واقع وحقيقة ثابتة فى المجتمع الذى يحيون فيه ، لكن تعاملهم معه من منطلق خستهم ، ومنطق لؤمهم وهاهم أخيراً قد لجأوا للشتم والسباب وإنه

---

(١) صحيح البخارى ، باب الرفق فى الأمر كله ، كتاب الأدب

لأسلوب الفاشل المنهزم المدحور .

يدخلون على رسول الله ، بثوب حمل يشف عن قلب ذئب ، ولسان سفه يغلّف سمه بالود ، ويلقون السلام على طريقتهم المراوغة العفنة التي يخادعون بها الضمير العالمي السقيم الآن ، ويسخرون بهذا السلام ، من العقول المغرّرة التافهة ، ويسدلونه ستاراً قذراً يخفون وراءه خناجرهم الموجهة المسمومة ، لكن مع رسول الله ﷺ فهيهات هيهات ، وتنبرى لهم عائشة رضى الله عنها بثورة الشباب وحماس إيبائهم تنافح عن رسول الله ﷺ وترد صاع اللئام بصاعين ، وحق لها أن تثور وتأبى لرسول الله ﷺ ، وحق لها أن تنافح عن الزوج الحبيب ، فأى رسول هو ؟ ، وأى زوج يكون ؟ .

وحق لها أن تُرى مكر اليهود يقظتها وفطنتها كأنما استحضرت قول القائل :

سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عيت [1]

لكن رسول الله ﷺ يستمهلها بتعقل الحكماء وترفق الأقوياء وتفضل الكرماء ، مهلاً يا عائشة ، لا ينالوا من عليائك بسفههم ، لا تلوثى شفاهك الطاهرة ولسانك الذاكر بشتمهم ترفقى يا عائشة ، فإن الله يحب الرفق فى الأمر كله .

هذا هو ترفع رسول الله ﷺ عن حظ نفسه ، وحلمه الأسمى فى مواجهة السفاهة الحاقدة ، والجهالة البذيئة وقديماً قال الشاعر الحكيم :

أوكلما طن الذباب طردته إن الذباب إذن علىّ كريم

وما أرقّ ذلك المترفع عن الفحش إذ يقول :

وإن تلك قد سابتنى فقهرتنى هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

وما أرجح عقل ذلك الشادى بمكارم الأخلاق :

وللكف عن شتم اللئم تكرماً أضرُّ له من شتمه حينى شتم

المبحث الثالث
[دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق]

ما نكاد نبتعد بالخاطر المجهد قليلاً عن دنس اليهود ومراوغاتهم حتى تطاردنا أذنابهم وصنيعة أيديهم من حلفائهم وأنصارهم وخدامهم الأوفياء الخلّص ، من هؤلاء الأذناب عبد الله بن أُبي بن سلول حليف يهود الذى صيغ على طريقتهم وتنكب خطاهم العثرة المخادعة .

والحديث عن عبد الله بن أُبي بن سلول حديث ذو شجون ، لكثرة أياديه السوداء على الإسلام والمسلمين ، وهذه هي ذاكرة التاريخ الإنسانى تتضوع ألما بما خطه ابن سلول بين طياتها من الخزى والعار ، وما أتبعه من الأساليب الرخيصة فى حرب العقيدة وعداء الدين ، وقد اختار هذا المنافق اللعين أقصر الطرق وأعظم الأهداف لتصويب سهامه المسمومة للقضاء على الدعوة فى شخص الداعية الأعظم ﷺ ، فكان ترويجه الرخيص لحديث الإفك إذ بذر بذوره الأبليسيه فاستنبتت لهباً شيطانياً أخذ المنافق ينفخ فيه ليضطرم أواره ظناً منه أن أقصر طريق لموت الدعوة إنما بالقضاء على الداعية ، وأسرع قضاء على كتيبة الإيمان إنما بموت قائدها وتنكيس رايتها ، لكن الله عز وجل ردّ كيده فى نحره ، وفضحه على رؤوس الأشهاد وحفظ رسوله الكريم وبيته الطاهر الشريف من سم ذلك الأفعى اللعين ، ولما لم يجد إلى رسول الله ﷺ سبيلاً فماذا يفعل وسمه يفور فى عروقه إلا أن ينفثه فى قلوب المؤمنين ليقوض رباطهم ، ويهدم صفهم ، ويشتت جهودهم ، فتخور قواهم ، وتنفصم عراهم ، فأخذ يضرب المؤمنين بعضهم ببعض فتارة ينفخ فى نار العداء القديم الذى أحالها الإسلام إلى محبه وسلام ، وأخرى يؤلب الأنصار على المهاجرين ، وهكذا لا تخبو نار

قلبه ولا يهدأ سم أنيابه ، كل هذا وهو يرتدى زى الإسلام ، ويلبس مسوح العباد والزهاد ، بل يحمل سيفه السقيم مضيّاً مع جند الله كأنه أحدهم وهو فى حقيقته أضر عليهم من العدو المواجه .

والأحداث تدور الآن فى طريق عودة جند الله المظفرين من المريسيع إلى المدينة المنورة بعد انتصارهم المبارك على بنى المصطلق نصراً أجج نار الحقد الأسود فى قلب المنافق ابن سلول واشتد فوران السم فى عروقه الخبيثة فتقاذف بغضه حمماً تنم عما بداخله من بركان فقال :

« والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « **دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه** » [1] .

والقصة كما ذكرها ابن كثير والخازن وصاحب الظلال - رحمهم الله تعالى - وكما هى فى كتب التفسير والسيرة أن مهاجرى وأنصارى قد تلاحيا على المياه فى طريق عودة الجيش ، فغلبَ المهاجرى الأنصارى ، فوجد فيها ابن سلول ضالته المنشودة وفرصته الذهبية للتنفيس عما يعتمل بصدره ، ولضرب الناس بعضهم ببعض « أفعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم » .

إنها دعوة القوميات والقبليات فى كل زمان ومكان التى تقطع الوشائج وتوهن الروابط وتفصم عُرى الأخوة والعقيدة فإذا الأخوة غرباء وأبناء العمومة

---

(١) البخارى ، باب لبس القميص ، كتاب اللباس .

أعداء ، وإذا بالأعداء الحقيقيين يلبسون ريش الحمائم على أنياب الأفاعى وقلوب الذئاب – وما أشبه الليلة بالبارحة – .

وتصل تلك الدعوة الخبيثة إلى رسول الله ﷺ ولشد ما آلمته ونالت من سكينته خوفاً على الإسلام وشفقة على المسلمين وهو يعلم أنها ليست الوحيدة من ابن سلول، بل إن ما سلف كان أخبث منها وأحط ، ولن تكون الأخيرة ، فالأفعى ما زالت حبلى بشتى أصناف السموم . وينتفض لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتفاضة من وهب نفسه لله عز وجل وشهر سيفه للذّب عن الإسلام والمسلمين وإزاحة ما يعترض طريق الدعوة من عقبات ، وشتان ما بين جند الرحمن وجند الشيطان « دعنى أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله » ، هذا هو الجزاء وذلك هو حسم القضية كما ينبغى أن يكون .

لكن حلم رسول الله ﷺ قد فاق كل حلم وبعد نظره قد أدرك كل العواقب فقال : « دعه يا عمر لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فتكون المفسده أعظم والخطب أخطر .

إن ابن أبى واجهة براقه ، مسلم يلزم قدم رسول الله ﷺ ويروح ويغدوا فى ركاب المسلمين ، هكذا عرفه الناس ، ولم يعلم معظمهم ما تنطوى عليه دخيلته من عداء وحقد للإسلام والمسلمين ، وقتله قد يثير الخوف والشك فى قلوب من لا يعرفون حقيقته ، هكذا قد وسع حلم رسول الله ﷺ سفاهة ابن سلول واحتمل الصفح أذاه فكان كما قال القائل :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

لكن الموقف لم ينته بعد ، إذ أنه من الخطورة بمكان ليس بالهين ، ويسأل رسول الله ﷺ ابن سلول سؤالاً يحمل رسالة مؤداها أن الله خاذلك وفاضحك وإن تواريت خلف ألف جدار من المكر والنفاق وأن القيادة يقظه واعية ، وأن

الجند أوفياء مخلصون ، أأنت صاحب هذا الكلام الخبيث الذى بلغنى ؟! .

ويتوارى المنافق خلف بجاحته ويتذرع بأيمانه الكاذبة ، « والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً الكاذب » وزيد بن أرقم رضي الله عنه هو الذى بلغ رسول الله ﷺ مقولة عبد الله بن سلول ، هكذا هم المنافقون فى كل زمان ومكان ، أناس مشوهون من الداخل ضعاف النفوس ، مهزوزوا القيم ، مخذولوا الإرادة ، خسيسوا الطبائع ، جبناء لا يقوون على المواجهة ، إنما يتوددون في الوجه ويطعنون من الخلف ثم يتبرأون من جرائمهم كذباً وزوراً ، وينكرون ويزرفون دموع التماسيح إذا وُجهوا بتلك الجرائم

وها هو ابن سلول ينكر قوله ، ويقسم الأيمان المغلظة على براءته بل يدعى أنه الموشى به المظلوم ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ۝ ﴾ [المنافقون : ٢] .

وكان عبد الله فى قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم فى حديثه ولم يحفظ ما قاله ... .

هكذا هم الوجهاء دائماً فى كل زمان ومكان ، يجدون من يحسن الظن بهم ولا يعدمون أنصاراً يحسنون إساءاتهم ويسترون سوءاتهم ويجملون قبائحهم ، وينافحون عن عظمتهم المزعومه ، أما زيد بن أرقم رضي الله عنه الذى لا تدق له الطبول فهو الكذاب رغم صدقه ، وهو الواهم رغم يقينه ، وهو المدلس رغم أمانته وغيرته على الإسلام ورسوله والمسلمين .

ويغض رسول الله ﷺ لقسم المنافق ، لا انخداع الخب المغرر حاشاه حاشاه ولكن إغضاء الحليم المتكرم المفضال ، وينزل القرآن الكريم يحكى قصة النفاق وينشر على الملأ فضائح المنافقين .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۝ ﴾ [المنافقون : ٧ – ٨] .

ومع هذا يظل رسول الله على حلمه ولا تغريه عروض المؤمنين فى استعداء سيوفهم لقتله ، وهذا عبد الله بن عبد الله بن أُبى بن سلول رضي الله عنه ، وقد جاء يتبرأ من نفاق أبيه ويعرض على رسول الله ﷺ أن يكفيه مؤونة قتله ، لكن رسول الله ﷺ لا يقابل هذا الوفاء العظيم من ذلك المؤمن الصادق إلا بمزيد من الحلم والإحسان فيقول : « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » صلى الله وسلم وبارك على أرق نسمه فى العالمين .



المبحث الرابع
[ثم لم يعاقبه]

الكفر كله ملة واحدة ، وإن تعددت صوره ، واختلفت مسمياته ، فمساعيه شتى ، وأمانيه مشتركة ، وأساليبه إبليسية ، وهدفه واحد هو إطفاء نور الله عز وجل ، وهيهات هيهات .

وكان أقصر الطرق لتحقيق هذا الهدف الدنئ هو قتل حاملى مشاعل الهداية ، واغتيال الفجر البازغ فى ظلمات ليلهم الدنس العربيد ، وهذه أيدى اليهود الآثمة ما زالت تقطر منها دماء كثير من أنبيائهم - عليهم السلام - هذا دم يحـيى عليه السلام مازال يفور فى ذاكرة الضمير الإنسانى ، وهذى رأسه الطاهر يتضوع ألماً أن قُدم مهراً لبغيّ، وهل مهر البغايا إلا ذبح الطهر وسفك العفاف؟.

وهذا صليب الغدر الذى نجى الله منه عيسى عليه السلام ، مازال جاثماً على صدر الزمان يحكى مأساة الفطر المنتكسة ومطاردة الظلام لكل ضوء رحيم وهل يصلب النور دائماً إلا على خشبة البوم والخفافيش ؟ .

وها هو شمس الحق ونور الحقيقة محمد رسول الله ﷺ ، تحاك له المكيدة تلو المكيده ، وتحكم لاغتياله الخطة تلو الخطة ، وتترصد له الفرصة تلو الفرصة ، ومعنا الآن محاولة من عشرات المحاولات التى استهدفت اغتيال الإسلام فى شخص رسول الله ﷺ .

« عن سنان بن أبى سنان الدؤلى أن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما - أخبره أنه غزا مع النبى ﷺ فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه ، فتفرق الناس

في العضاة يستظلون بالشجر ، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ثم نام ، فاستيقظ وعنده رجل ولا يشعر به ، فقال النبي ﷺ : إن هذا اخترط سيفي فقال : من يمنعك ؟ قلت : الله ، فشام السيف فهو جالس ، ثم لم يعاقبه ... وفي رواية : « فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ ، قال الله » (١) .

قفل رسول الله ﷺ بالجيش عائداً من غزوة غزاها ، فلما أجهدهم المسير وأدركتهم القائله ، حطُّوا رحالهم وتفرقوا في العضاة ، ينشدون شيئاً من الراحة ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة قد علق سيفه بها ، ونام تحتها هادئ النفس ، مطمئن القلب ، قرير العين ، ولم لا ، وهو قد خرج في سبيل الله ، وهو يجاهد لله وبالله ، وهو يثق تمام الثقة بمعية الله خير الحافظين .

نام رسول الله ﷺ لكن عين الغدر لم تنم ، إنما هي يقظة ترصد الهدف، وتتحين الفرص ، وهاهي فرصتها المرتقبة قد واتتها ، وها هو رسول الله ﷺ مستغرق في نومه تحت الشجرة ، وها هو سيفه معلق فوقها ، وهاهم الصحابة متفرقون عنه في الوادى قد كفاها النوم مؤنتهم ، كل الأسباب مهيأه ، لكن خالق الأسباب فوق كل الأسباب ، ويخترط المشرك الغادر سيف رسول الله ﷺ ، ليغتاله به ، هيهات هيهات ، فهل له من سيف رسول الله ﷺ إلا كما لقوم إبراهيم عليه السلام من نار إبراهيم .

يستيقظ رسول الله ﷺ ، وذلك المشرك على تلك الحالة من التأهب والتحفز ويندهش ذلك المتوشح سيفاً من ثبات رسول الله ﷺ وعدم ارتياعه

---

(١) صحيح البخارى ، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائله والاستظلال بالشجر، كتاب الجهاد والسير.

فتنطلق دهشته سؤالاً حائراً ومتعجرفاً معاً : ألا تخافنى ؟ ، هذا أنا بكل حقدى وغدرى ونشوة الظفر بك ؟ ، وهذا هو السيف . بعنفوانه وجبروته ، وسطوته ، ألا تخافنى ؟ .

ويجيب رسول الله ﷺ بنفس هدوئه وثبات قلبه « لا » إنه اليقين فى الله .

وهل لقوة النفس المؤمنة أن تتهاوى أمام فجاءة الغدر والخديعة ؟ .

وهل لعزة المؤمن أن تنهزم أمام أسباب الخوف ؟ .

وهل لثبات القلب الموحد أن يرهبه بريق السيف ؟

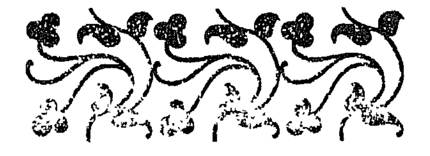
معانى لا يدركها مشرك أحمق ، قد اتخذ إلهه هواه ، وعبد الشجر والحجر من دون الله ، وتزداد دهشته وتتسع حيرته ، فيعود ليسأل من جديد من يمنعك منى ؟ ، ويجب رسول الله ﷺ بيقين الواثق فى ربه عز وجل : الله ، وهنا تخور قوى الرجل فترتعد فرائصه ، وينطفئ بريق السيف فى عينيه وتخبو نار الحقد فى قلبه ، ويجلس زاهلاً مستسلماً محقراً لأحجاره وأشجاره التى ما منعت عبيدها يوماً ولا ملكت دفع الضر عنهم ولا تحويله .

معظماً لرب محمد ﷺ الذى حفظه والسيف قاب قوسين منه أو أدنى ، ومنعه والموت متحفر فى حد السيف السليط . الموقف الآن قد تحول إلى الضد تماماً ، السيف بإحدى يدى رسول الله ﷺ والرجل بيده الأخرى والحق معه ، والعقل يؤيده ، والله ناصره وماهى إلا ضربة واحدة ليصبح الرجل بعدها مجدلاً فى أرض غدره مأخوذاً بجريرته ، لكنه محمد رسول الله ﷺ ، رسول المحبة وداعية السلام الذى رباه ربه عز وجل على مكارم الأخلاق فقال :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ولهذا فليس ثمة إلا العفو والمغفرة ، ليس ثمة إلا الحلم والإحسان صلى الله وسلم وبارك على معلم الأمة الحلم والترفع على أسباب الغيظ ، إذ قال : **« من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور العين شاء »** [(١)] .

والقائل **« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »** [(٢)] .



(١) البخارى .

(٢) البخارى ، باب الحذر من الغضب ، كتاب .

المبحث الخامس

[اللهم اهد أم أبي هريرة]

واربــأ بحلمــك فى النــوازل أن يلــم بــه الجــزع [(١)]

مـا أرفع النفس حين تغض الطرف عن زلات الآخرين ، ومـا أغناها حين تترفع على خط نفسها ، وما أكرمها حين تتصدق على المسيئين بنصيبها من الإساءة .

هكذا كانت نفس رسول الله ﷺ رفيعة غنية كريمة مفضالة تشفق على المسيئين ، أن كبلتهم طينتهم وأهاضت أجنحة السمو فى نفوسهم فقصرت دون التحليق فى عالم الفضائل وسماء القيم ، بل إن تجاوز رسول الله ﷺ عن الإساءة قد أذاب قيدها من حول رقاب كثير من المسيئين فانطلقوا بفضل من الله وبركة تفيض من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ إلى أفق الفضائل .

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه تفيض أزهاره بشذى بركة أخلاق رسول الله ﷺ التى تطهر القلوب ، وتبصر العقول ، وتفتح الآذان الموصدة حيث يقول :

« كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة فدعوتها يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقلت : يارسول الله ، إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى عليّ فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد أم أبى هريرة ، فخرجت مستبشراً بدعوة نبى الله ﷺ ، فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف ، فسمعت أمى خشف قدمى ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة

---

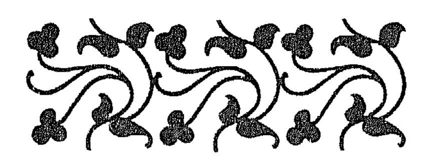
(١) ديوان شوقي

وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، قال : قلت : يارسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً » [(١)] .

جـاء أبو هريرة رضي الله عنه يعالج حزنين ويبكى ألمين – يعالج حزنه من أمه وعليها – ويبكى إساءة أمه لرسول الله ﷺ وهو الحبيب القريب المفدى بالنفس والمال والولد ، ثم يبكى شرك أمه وإصرارها على الكفر وخوفه عليها وهو الابن البار الشفوق .

ويدرك رسول الله ﷺ عذابات أبى هريرة رضي الله عنه فيرحمه فى أمه ويتجاوز عن إساءتها ويحلم على تطاولها عليه ﷺ ، ليس فقط إنما يدعو لها بالهداية رحمة لها ، وإكراماً لإبنها الصحابى الجليل الذى كرس حياته للعلم والتلقى عن رسول الله ﷺ ، وهكذا تسلم أم أبى هريره ببركة الحلم وروعة البر .

ألا ليت المسلمين يتعلمون ، وليت الدعاة إلى الله يتقون الله فيما استرعاهم فيه .



---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٩١) .

المبحث السادس
[اللهم اهد دوسا وائت بهم]

ولإن استدعت شفقة أبى هريرة على أمه وحبه لها تجاوز رسول الله ﷺ عن إساءتها ودعاءه المبارك لها فهل تستعدى نقمه الطفيل بن عمرو رضي الله عنه على قومه ويأسه من إسلامهم مشاعرر سول الله ﷺ عليهم ، وهل عساه يهلكهم بدعائه عليهم .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قدم الطفيل بن عمرو الدوسى وأصحابه إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إن دوساً هلكت وعصت وأبت ، فادع الله عليهم فقيل هلكت دوساً ، قال : « **اللهم اهد دوساً وائت بهم** » (١) .

إن موقف الطفيل بن عمرو رضي الله عنه من قومه موقف المسلم الغيور على دينه ، المتحمس لنصرته ، المتعجل نشره ، الثائر على كل عقبة فى طريقه ، وإن كانت خاصته من أهله وعشيرته .

أما موقف رسول الله ﷺ فموقف الداعية المخلص الأمين ، الذى لا يألو جهداً لتبليغ دعوته ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلاً ، إنما هو البذل والتضحية والرأفة والرحمة ، والصبر والمجاهدة ، والحلم والملاطفة والدعاء المخلص الرحيم الذى لا توصد دونه أبواب ولا تحجبه حجب .

هكذا علمنا رسول الله ﷺ معنى الحلم ، هكذا علم الأمة ألا تحرم نفسها ثمرة الحلم وجميل عواقبه ، سيما بين المسلمين بعضهم البعض ، إذ تجمعهم أخوة العقيدة ووحدة الدين لما للحلم من أثر واضح فى دوام الود وإشاعة روح

---

(١) البخارى ، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ، كتاب الجهاد والسير .

التسامح والمحبة بين الأمة فرادى وجماعات ، بل هكذا علمنا كيف يكون الحلم حتى على غير المسلمين ، ليس عن ضعف واستكانه ، إنما عن تكرم وتفضل وإحسان لا لشيء إلا لأن هذه هى روح الإسلام وتلك هى أخلاقه ، هكذا علم رسول الله ﷺ دعاة الأمة كيفية حمل الأمانة والقيام بها حق القيام ومعايشة همومها ودفع ضريبتها عن حب وتفانى من أنفسهم وأوقاتهم وأعصابهم وكريم خلقهم ، بل ونبض قلوبهم ، حتى لا تؤتى الدعوة من قبلهم ، بل تحيى الدعوة ببركة إخلاصهم وتقوى قلوبهم وتترعرع بفيض حكمتهم وتنتعش بيقظة وعيهم .

الفصل السابع
[حلماء في مدرسة الرسول ﷺ]

[١] انظر هل للرجل حاجه :

شتم رجل ابن عباس رضي الله عنه فلما قضى مقالته فقال : يا عكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فتقضيتها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى [(١)] .

[٢] لأغيظن من حرضك على غيظي :

جاء غلام لأبى ذر رضي الله عنه وقد كسر رجل شاة له ، فقال لـه : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك فتضربنى فتأثم ، فقال : لأغيظن من حرضك على غيظى ، فأعتقه [(٢)] .

[٣] إني استحي أن يضيق حلمي بأحد رعيتي :

أسمع رجل معاوية كلاماً شديداً فقيل له : لو عاقبته ؟ فقال إنى لأستحيى أن يضيق حلمى بأحد رعيتى [(٣)] .

[٤] إن كان بقي عندك شيئ فقل :

شتم رجل عدى بن حاتم رضي الله عنه وهو ساكت فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقى عندك شيء فقل قبل أن يأتى شباب الحى فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا [(٤)] .

[٥] إنما سألني : أمجنون ؟ فقلت : لا .

دخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة فى الظلمة فمر برجل نائم فعثر به ،

---

(١) ، (٤) مختصر منهاج القاصدين

فرفع رأسه فقال : أمجنون أنت؟ ، فقال عمر : لا فَهم به الحرس ، فقال عمر : إنما سألنى أمجنون فقلت : لا [١] .

[٦] أشهد إنك لمن أولاد الرسول :

لقى رجل عليّ بن الحسين – رضى الله عنهما – فسبه ، فثارت إليه العبيد فقال : مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ ، فاستحيى الرجل ، فألقى عليه خميصه كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد إنك لمن أولاد الرسول [٢] .

[٧] وليرفق الشيخ بالشيخ :

قسم معاوية رضي الله عنه قُطُفاً فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه ، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأتاه فأخبره فقال له معاوية : « أوف بنذرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ » [٣] .

وكأن لسان حاله يقول :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه إليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فأحلم دائباً ... أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

---

(١) ، (٢) مختصر منهاج القاصدين
(٣) أدب الدنيا والدين .

[٨] اذهبي فأنتِ حُرة لوجه الله :

عن عبد الرازق قال : صبت جارية الماء لعليّ بن الحسين ليتهيأ للصلاة ، فوقع الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه ، فرفع عليّ بن الحسين وجهه إليها ، فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : والكاظمين الغيظ ، فقال لها : كظمت غيظي ، قالت : والعافين عن الناس ، قال لها : عفا الله عنكَ ، قالت : والله يحب المحسنين ، قال لها : اذهبي فأنتِ حُرة لوجه الله [(١)] .

[٩] ودع للصلح موضعاً :

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمعه كلاماً : يا هذا ، لا تغرقن في سبنا ، ودع للصلح موضعاً ، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه [(٢)] .

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه ... لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

[١٠] غفر الله لك :

شتم رجل الشعبي فقال : إن كنت كما قلت فغفر الله لي ، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك [(٣)] .

لا يبلغُ المجد أقوام وإن كرموا ... حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويُشتموا فترى الألوان مسفرة ... لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

[١١] والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه :

الأحنف بن قيس « أحد حلماء العرب الذين ضرب بحلمهم المثل » وقد بلغ من حلمه أن عمرو بن الأهتم أغرى رجلاً بسبه سباً مقذعاً يثير الحفائظ ، لكن الأحنف ظل صامتاً مطرقاً ، فلما رأى الرجل أنه لا يجيبه ولا يأبه له ،

---

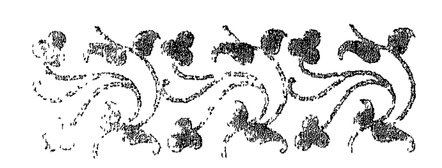
(١) ، (٢) ، (٣) أدب الدنيا والدين .

أخذ بإبهامه في فمه وجعل يعضّه وهو يقول : واسوأتاه ، والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه (١) .

[١٢] وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا :

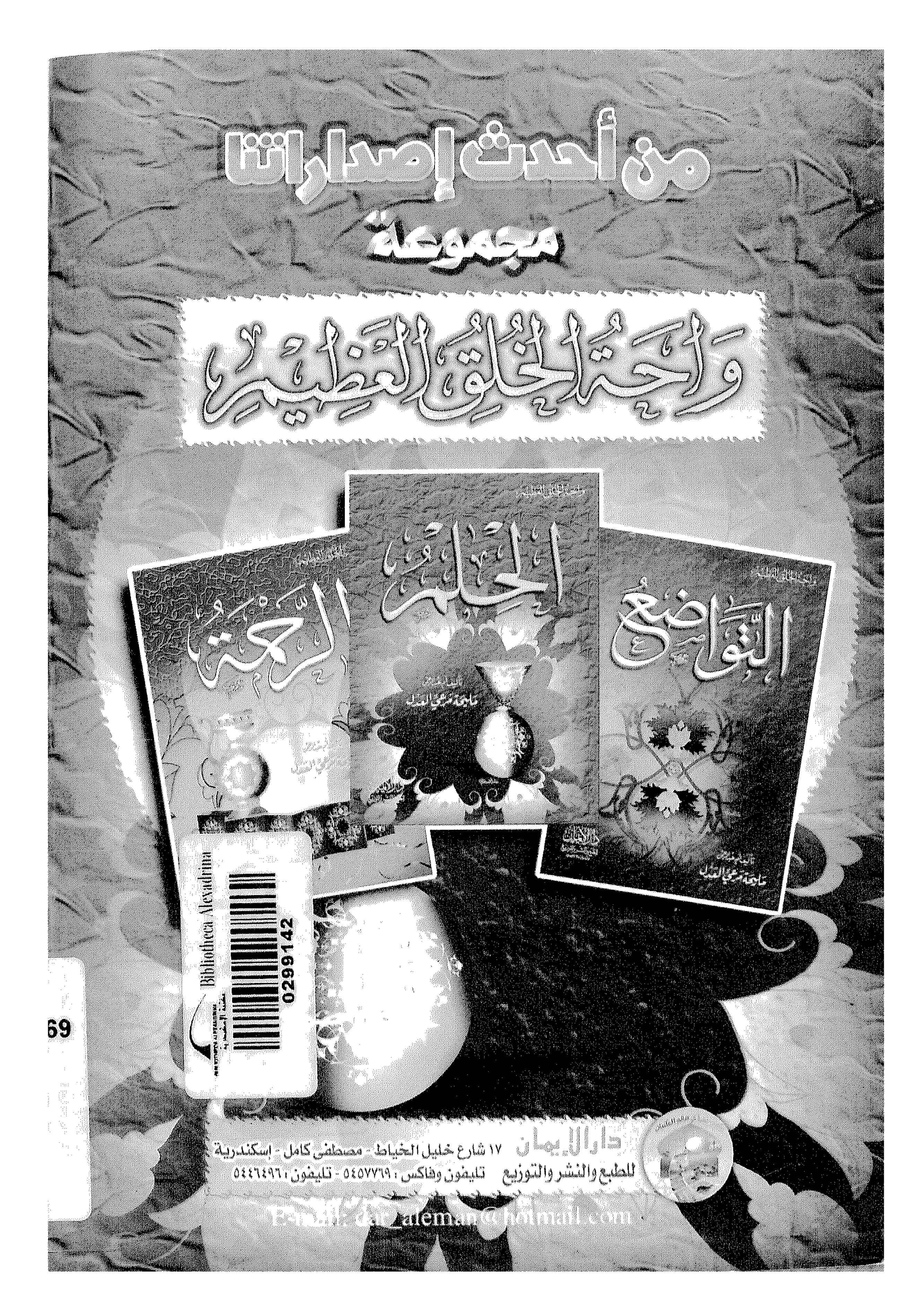
قال عبد الله بن طاهر : كنت عند المأمون فنادى بالخادم يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانياً وصاح : يا غلام ، فدخل غلام تركي وهو يقول : أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام ياغلام !! إلى كم يا غلام ؟ ، فنكس المأمون رأسه طويلاً ، فما شككت في أن يأمرني بضرب عنقه ، ثم نظر إليّ فقال : يا عبد الله : إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا (٢) .

مجالسهم مثل الرياض أنيقة لقد طاب منها الريح واللون والطعم



الفهرس




من أحدث إصداراتنا
مجموعة
واحة الخلق العظيم
التواضع
الحلم
الرحمة
ماجدة مرعي العدل
Bibliotheca Alexandrina
0299142
دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون : ٥٤٤٦٤٩٦٠
E-mail: dar_aleman@hotmail.com